

الوضع السياسي والعسكري...للجزائر أواخر العهد العثماني

من خلال مخطوط رحلة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاي

إلى محروسة ثغر الجزائر سنة 1816م

د.خير الدين شترة

قسم التاريخ- جامعة المسيلة

الملخص باللغة العربية:

يعتبر (القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر هجري) هو ذروة الهرم الحضاري الذي عرفه الإقليم التواتي عبر مراحل التاريخ فظهر في هذه الفترة مجموعة من العلماء الذين أدركوا حقيقة العلم وأبدعوا في جميع ميادينه وأشكاله نخص بالذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاي، ومن جملة العلوم والفنون التي أبدع فيها علماء إقليم توات بالجنوب الجزائري في القرن الثامن عشر الميلادي هو فن الرحلات، الذي ازدهر وعرف تقدماً ملحوظاً في هذه الفترة، فلا تكاد تجد عالماً يسافر إلى منطقة خارج إقليمه إلا ويسعى لتدوين تلك الرحلة، ثم تسمى الرحلة حسب الغرض الذي سافر من أجله، ومحاولة للفت انتباه المؤرخين والأدباء إلى أهمية هذه الرحلات جاءت فكرة الاستفادة من مخطوط نادر يتحدث عن الحملة الانجليزية الهولندية بقيادة اللورد اكسموث عام 1816م ويصف بدقة الوضع السياسي والعسكري والثقافي والاجتماعي... للجزائر أواخر العهد العثماني، إن هذه الرحلة وبالنظر إلى ما ورد فيها من أحداث وتفصيلات تهم تاريخ الجزائر في الفترة التي تسبق المرحلة الاستعمارية بقليل فهي في وقتنا الراهن مفيدة وضرورية لقراءة صحيحة لتاريخ الجزائر في الفترة الحديثة بعيداً عن التدليس الذي مارسه المدرسة التاريخية الاستعمارية.

الملخص باللغة الأجنبية:

- Political, military, of Algeria at the end of the Ottoman era through the manuscript: The journey of Sheikh Abdurrahman Ben Idris Tilani to Mahroussa borderline city of Algeria

This century is considered the pinnacle of civilization pyramid has that canton of Touat had known through its historical periods. At that time, a group of Ulema have understood the reality of knowledge and innovated in all its forms and fields such as Cheikh Abderrahmane Ben Idris Tilani.

Of all the sciences, arts in which the scholars of the Canton of Touat in southern Algeria have innovated in the 18th Century is the art of travel that had developed and experienced significant progress at that time. Indeed, almost all scholars who had travelled outside their canton had inscribed these trips and the trip takes a name according to the purpose for which he had travelled. In order to attract the

attention of men of letters and stories about the importance of these trips, came the idea of taking advantage of a rare manuscript speaking of the Anglo-Dutch assault with leadership of Lord Exmouth in 1816 who described precisely the political, military, cultural and social ... of Algeria at the end of the Ottoman era. This era in view of what happened as events, details that interest the history of Algeria at the time preceding the colonial era are nowadays useful and necessary for a correct reading of the history of the Algeria in modern times away from tampering exerted by the colonial historical school

المقدمة:

إن أدب الرحلات الذي ولج إليه الشيخ عبد الرحمان بن إدريس من بابه الواسع، فناً أديباً عربياً عتيقاً يجد جذوره في رحلتي (الشتاء والصيف)، أو يمكن القول أن تاريخ الرحلة بدأ مع تاريخ الإنسان نفسه، بقصد البحث عن القوت الذي كان سبباً رئيساً في حركة البشر وهجراتهم في العصور القديمة من تاريخ الإنسانية، وبقصد البحث عن الدفء والأمن وما احتاجه آتئذ. حتى إن هذين الدافعين (الاقتصادي والأمني) قد امتزجا بخوافز الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديده، ولهذه الأسباب وغيرها حظيت الرحلة باهتمام القدماء والمحدثين على حد سواء، رغم ما كان لها وما يزال من جوانب مشينة، مثل: التجسس، والتمهيد للعدوان على الآخر، والاحتلال والاستيطان. وأصبح بعد انتشار الأمصار الإسلامية موضوع تأليف كثيرة من الرحالة المسلمين في الخافقين، كما كانت الرحلة نفسها وسيلة لطلب الحديث ثم الاستزادة من المشيخة، وبين هذا وذاك رحلة للحج وللزيارة، وتدوين الرحلة فن من أهم الفنون الأدبية، حيث تبرز شخصية الرحالة حين يقدم صورة واقعية عن ما تسفر عنه تلك الرحلات من معارف علمية، وتقاليد ثقافية، وطبائع بشرية، وأعراف اجتماعية، ونماذج حضارية. ويعتمد أدب الرحلة أسلوب التشويق، ويوفر لقرائه روح المتعة، والعيش مع القصة وتسلسل الأحداث استناداً على ما يولده فعل السفر، والتنقل من أحداث متراكمة ومتراصة، ومشاهدات، ورؤى متجددة بتجدد المكان والزمان وحالات النفس الرحالة، إذًا، فأدب الرحلات يهتم بعملية المثاقفة والصراع القيمي الذي يحدث داخل عقل المرتحل وبالأسئلة التي تلمع في ذهنه أثناء مشاهداته وتأملاته حياة الشعوب الجديدة وعاداتها بالنسبة إليه، بحيث لا تتحدد ماهية كتب الرحلات بصفتها كتباً جغرافية أو تاريخية، بقدر ما تتحدد بصفتها كتباً علمية تأملية فلسفية وانثربولوجية، تتعلق بتأثر نظرة المؤلف الأخلاقية وتكوينه الثقافي وخياله الأدبي ووعيه السياسي، بثقافات تلك الشعوب وعاداتها وعقائدها من جهة، وتأثير هذه الثقافات في وعيه التاريخي والسياسي والأخلاقي من جهة ثانية، وما يؤيد هذه النظرة أن كتب الرحلات كثيراً ما تنقلب إلى تأملات في المبادئ التي تتطور من خلالها المجتمعات، وبحث عن العوامل التي تعطي الشعوب القوة والتمدد. وهذا كان حال الرحالة ابن خلدون (1406 - 1332م) في كتابه الشهير: «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، وحال البيروني (المتوفى عام 440 هـ)، وهو حال الرحالة العرب في القرن التاسع عشر أيضاً، ولاسيما رافع رفاعه طهطاوي (1801-1874م) في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وخير الدين التونسي (1810 - 1899م) في كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك...».

ويعتبر (القرن الثامن عشر الميلادي الثاني عشر هجري) ذروة الهرم الحضاري الذي عرفه الإقليم التواتي عبر مراحل التاريخ فظهر في هذه الفترة مجموعة من العلماء الذين أدركوا حقيقة العلم وأبدعوا في جميع ميادينهم وأشكاله، ومن جملة العلوم والفنون التي أبدع فيها علماء إقليم توات بالجنوب الجزائري في القرن الثامن عشر الميلادي هو فن الرحلات، الذي ازدهر وعرف تقدماً ملحوظاً في هذه الفترة، فلا تكاد تجد عالماً يسافر إلى منطقة خارج إقليمه إلا ويسعى لتدوين تلك الرحلة، ثم تسمى الرحلة حسب الغرض الذي سافر من أجله، وكمحاولة للفت انتباه المؤرخين والأدباء إلى أهمية هذه الرحلات جاءت فكرة الاستفادة من مخطوط نادر يتحدث عن الحملة الإنجليزية الهولندية بقيادة اللورد اكسموث عام 1816م ويصف بدقة الوضع السياسي والعسكري.. للجزائر أواخر العهد العثماني، إن هذه الرحلة وبالنظر إلى ما ورد فيها من أحداث وتفصيلات تهم تاريخ الجزائر في الفترة التي تسبق المرحلة الاستعمارية بقليل فهي في وقتنا الراهن مفيدة وضرورية لقراءة صحيحة لتاريخ الجزائر الحديث بعيداً عن التدليس الذي مارسه المدرسة التاريخية الاستعمارية، في مساهمتنا المتواضعة هذه نريد أن نسهم في التأريخ لأدب الرحلات السياحية والثقافية والاجتماعية في إقليم توات على الخصوص وبالمغرب الأوسط على العموم، ولا نريد لإسهامنا هذا أن يتوخى سبيل الإحصاء والاستقصاء لمتن هذه الرحلة بتفاصيلها، ففي الإمكان أن يقف القارئ على ذلك عند الدراسات التاريخية والأدبية السابقة ولها — فضلاً عن فضيلة سبق — مزية الاستقراء الشامل ما يكاد يكون كذلك، بل نطلب التماس تقريب صورة هذه الرحلة من خلال التركيز على بعض ما قد يفيد الباحث المختص في المجال الجغرافي والتاريخي والأنثروبولوجي... وأهمية هذا المخطوط تكمن فيما يمكن أن تستنبطه منه من قيم علمية وحضارية واجتماعية وسياسية.. إذ يعتبر من أهم المصادر المحلية التي سلّطت الضوء على الحياة العامة في الجزائر وكذا علاقة بعض الأقاليم الجزائرية ببعضها البعض، حيث ترصد هذه الوثيقة المخطوطة نموذجاً حياً عن النشاط العلمي والديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي... في مختلف المراكز والمدن والمناطق الفاعلة وقتذاك، إضافة إلى رصدها لصورة التفاعل العلمي والتواصل الحضاري (الحلي) الحاصل بين هذه المناطق والمراكز النشطة خلال تلك الفترة، مؤلف هذه الرحلة هو الشيخ سيدي عبد الرحمان بن إدريس التواتي التنيلاي وقد قادته المسيرة حينها إلى الجزائر الحروسة بتاريخ أول شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف (1231هـ) (1816م) وهو تاريخ الانطلاق من زاوية جده بتنيلاي مروراً ببلدة تيميمون، وبلاد أمزاب (غرداية) أولاً ثم مدن المديّة والبليدة وأرض متيجة ثانياً ووصولاً إلى الجزائر الحروسة أين مكث بها 37 يوماً شهد في أحداثاً وأهوالاً عظيمة عاشتها الأمة الجزائرية حينئذٍ. حيث تزامنت رحلته مع الحملة الإنجليزية -الهولندية على مدينة الجزائر، فوصف أحداثها وأسبابها وطريقة مواجهة الجزائريين لها ومدى قوة المستعمر الإنجليزي والهولندي، كما أنه وضّح الأسباب والعوامل التي كانت السبب في هزيمة الجزائريين، وتزداد هذه المخطوطة قيمةً تاريخيةً إذا اكتشفنا أنها تقدم بعض المعلومات الجديدة والحصريّة إذا ما قارناها مع المصادر المحلية الأخرى كمذكرات الشريف الزهار¹، ورسالة عمر داي إلى الخليفة بإسطنبول²،

¹ - الزهار (أحمد الشريف)، مذكّرة الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تج. أحمد توفيق المدني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص 117 وما بعدها.

² - التميمي (عبد الجليل)، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، منشورات مركز الدراسات والبحوث، تونس، 1985م، ص 146.

ليستفيد القارئ من وجهة نظر أخرى للأحداث ربما قد تكون في أغلبها موضوعية وفي أحيان أخرى تحانب الموضوعية وتغرق في الذاتية، رغم أن صاحب الرحلة تعهد في موضعين اثنين بالمخطوط أنه لا يتحدث إلا انطلاقاً من المشاهدة العيانية أو من مصدر موثوق: «هذا تحقيق ما وقع بين صاحب الجزائر "الباشا عمر" وبين "بدر لنقليزي" -طاغية "اقلتكطر" دمره الله-، وقطع دابره بعضه مشاهدة، وبعضه بطريق الخبر من الثقات (كذا) والسلام»³.

1. ترجمة صاحب الرحلة (الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التينلاني)

رغم مراجعتنا لأمّهات المصادر التواتية وغيرها من المهتمّة بفن التراجم والسير إلا أننا اصطدنا بحقيقة مُرّة ملخصها شحّ البيانات وندرة التفاصيل المرتبطة بسيرة صاحب الرحلة وهو ما عبّر عنه سابقاً كل من تناول رحلته بالدراسة، وللأسف حتى المتوفر من أخبار سيرته وأعماله عاجز عن تقديم صورة شاملة وتفصيلات شافية للشيخ عبد الرحمن بن إدريس بن عمر التينلاني إذا ما قورن مع غيره من مشايخ العائلة التينلانية بصفة خاصة والتواتية بصفة عامة، ولعل ما ذكره الشيخ عبد القادر بن عمر المهداوي في كتابه المخطوط (الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية) هو الأكثر توسعاً في ترجمة سيرته -على هزالتها- وهو ما يقف حائلاً بيننا وبين معرفة مختلف جوانب سيرة صاحب الرحلة.

أ-نسبه: هو الشيخ عبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التينلاني⁴ ينتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه. بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف يلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف⁵، وهذه السلسلة المشجرة منقولة من مكتبة خاصة بأحفاد الشيخ أحمد بن يوسف مؤسس تينلان هذا هو المحقق والمضبوط في وثائقهم وفي مؤلفاتهم وقد عثر على وثيقة بخط بعض من العلماء منهم الشيخ محمد عبد الكريم بن محمد التواتي بأن نسبهم يرجع إلى السيد الحسن بن علي، وصحّح ذلك الشيخ محمد عبد الحق بن القاضي محمد عبد الكريم، والسيد محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلالي، ومحمد عبد الكريم بن محمد بن عبد المالك البلالي، والسيد محمد بن أحمد الحبيب البلالي وغيرهم⁶، لكن الروايات الشفوية والمصادر المحلية تُجمع على أنّ نسبهم يرجع إلى سيدنا عثمان بن عفان، حيث ذكر صاحب كتاب (قطف الزهرات) في التعريف بنفسه حيث يقول: «عبد العزيز بن علي بن محمد عبد العزيز بن محمد فتاحاً ابن محمد بن عمر صاحب زاوية مهدية... ابن عبد الرحمان بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التينلاني من آل سيدنا عثمان بن عفان»⁷.

³ - التينلاني، مخطوط الرحلة إلى ثغر الجزائر، ص.ص(12-13).

⁴ - باي (بلعالم محمد)، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج2، دار الأمة، 2005م، ص184.

⁵ - يراجع: - عمر (عبد العزيز)، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، الجزائر: دار هومة للنشر، 2004م، ص145- مؤلف مجهول، تقييد لأنساب العائلة التينلانية، خزانة با عبد الله أدرار-

⁶ - باي (بلعالم محمد)، الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينلاني، الجزائر: دار هومة، 2004م، ص3. راجع أيضاً: محمد

عبد العزيز سيد اعمر، العلم عماد الدين والإيمان وذكر مناقب العلماء حياة الإسلام، خزانة زاوية مهدية، أدرار

⁷ - نفسه، ص09.

ب- مولده: ولد مترجمنا عام (1181هـ / 1767م)⁸ بتنيلان، والواقعة حالياً شمال مدينة أدرار مقر الولاية وتبعد عنها بـ 02 كلم، وهي التي أسسها أحمد بن يوسف التنيلاني في سنة 1078هـ / 1667م⁹، أي سنة قبل وفاة والده، والذي وافته المنية سنة (1182هـ / 1768م) ودفن بتنيلان، وبذلك نشأ مترجمنا يتيم الأب. والظاهر أن جلّ المصادر المخطوطة منها والمطبوعة على قلتها تتفق جميعاً على تاريخ ميلاده.

ت- تحليلته: يُعد الشيخ من أعلام الرحلة في توات، عُرف عنه أنّه كان عالماً ماهراً في أصول الفقه والتفسير، وكان حافظاً للمسائل، يصفه صاحب (الدرة الفاخرة) بالمهارة في العلم وأصول الفقه والتفسير: «كان من غرائب الدهر في الحفظ»¹⁰، وقال عنه صاحب (قطف الزهراء): «الناصح الناسك الفقيه»¹¹، كما قال عنه صاحب (الرحلة العلية): «كان عالماً ماهراً في أصول الفقه والتفسير وكان حافظاً للمسائل»¹²، ومن أشهر ألقابه: أبو زيد، والتواتي وهذا اللقب الأخير عُرف به التواتيون في الأقطار الأخرى تمييزاً له عن باقي الشيوخ ومن جملة ما يستدلُّ به على ذلك هو ما ورد في مقدمة مخطوط رحلته: «وكتبه "عبد الرحمن بن إدريس التواتي التنيلاني"-تولاه الله-»¹³. وغالب الرأي أن الشيخ كان يُحبذ هذا اللقب كثيراً، فهو ينسب نفسه إلى القطر التواتي في كم من موضع كمرثياته الشهيرة، وحتى الذين ترجموا له يصرون على إضافة التواتي إلى خاتمة اسمه. ومن ألقابه أيضاً التنيلاني وهذا اللقب لا نسجله إلا عند المترجمين للشيخ أو الذين نسخوا كتبه من بعده فينسبونه إلى مسقط رأسه تنيلان، مثل الذين نسخوا رحلته إلى ثغر الجزائر: «هذه رحلة للشيخ سيد عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني رحمه الله ورضي عنه»¹⁴، ولا يوجد ما يؤكد أنه كان يُختتم اسمه بهذا اللقب في رسائله وديوانياته خاصة تلك التي نسخها بيده، مع العلم بأن كل كتاباته كان يعرف بنفسه فيها سواء في مطلعها أو في خاتمها؛ إلا إذا كان من فعل الناسخين أو عند المهتمين المعاصرين به مثل الشيخ باي (رحمة الله عليه)¹⁵.

ث- مرحلة النشأة والتعلم: عرف الشيخ عبر مساره الدراسي مرحلتين أساسيتين بناءً على تنقلاته ورحلاته العلمية من قطر إلى قطر بحثاً عن من يشفي غليله وطموحاته العلمية اللاحدة بقُطر معين أو بشيوخ معهودين والتي كانت تفوق المستوى الأعلى في المنطقة، ومن أجل إشباع ذلك كان لزاماً عليه أن يغادر وطنه إلى حيث يجد ضالته ومآربه العلمية وغايته المنشودة، وقد تحقق له ذلك في الأقطار العلمية المجاورة، فتلقى تعلمه الأول بالزاوية التنيلانية¹⁶ خلال الفترة (1181-1196هـ) - (1767-1782م)، بحفظ القرآن على يد الشيخ "عبد الرحمان

⁸ - باي بلعالم، الرحلة العلية، ج2، ص185.

⁹ - الصديق (حاج أحمد)، التاريخ الثقافي لإقليم توات، منشورات مديرية الثقافة، أدرار، 2005م، ص85.

¹⁰ - المهادوي (عبد القادر بن عمر)، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط بخزانة باعبد الله، أدرار.

¹¹ - عمر (عبد العزيز)، قطف الزهراء، ص90.

¹² - نفسه.

¹³ - نفسه،

¹⁴ - زيادة بخط الناسخ.

¹⁵ - محمد (باي بلعالم)، الغصن الداني، ص03.

¹⁶ - للتوسع في معرفة الزوايا يمكن العودة إلى: الصديق (الحاج أحمد)، المرجع السابق، ص-ص (85-86).

بن عمر التنيلاي "على عادة أهل توات أنهم يفتتحون دارستهم الأولى بحفظ كتاب الله¹⁷، تيمناً به وتقديساً له على الكتب والعلوم الأخرى والمنطقي أنه بعد حفظه للقرآن الكريم ينتقل إلى دراسة العلوم الإسلامية الأخرى وفق ما تقتضيه المناهج في المنظومة التعليمية الشائعة بالإقليم¹⁸ والتي وضع أسسها خلال هذه الفترة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاي حيث درس (صحيح البخاري) و(شمائل الترمذي) وكتاب (الشفاء) للقاضي عياض، وبعض مظان فقه مالك كرسالة ابن أبي زيد القيرواني، و(مختصر خليل)، و(متن المرشد المعين) لابن عاشر ثم درس علوم اللغة، بدءاً من (ألفية ابن مالك) و(لامية الأفعال) و(الأجرومية) و(تلخيص المفتاح)، و(السلم المرونق) في المنطق، وغيرها من المصنفات¹⁹، وما يؤيد هذا الافتراض هو ما جاء في رحلة عبد الله بن أحمد الفلاني²⁰. ومن أخذ عنهم العلم خلال هذه المرحلة: الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنيلاي (1154-1233هـ) (1741-1817م)²¹ ولكن الغاية المنشودة والأمل الأكبر لم يتحقق له بعد، لهذا سعى إلى إيجاد شيخ يمكن أن يوفر له الأكثر من ذلك، فكان ممن أنبهر بهم واقتفى أثرهم الشيخ سيدي محمد بن أحمد الجزلاوي²² ت (1064هـ-1653م)، الذي كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، وكان عليه مدار الفتوى في المذهب، ماهراً في أصول الفقه²³، درّس مترجماً الفقه والنحو والصرف، وتميز وتفوق على أقرانه في علم النحو، حتى لم يكذب يُعرف إلا به²⁴، ويمكن بالقياس أن نستنتج دراسته أو سماعه لدروس عدد من شيوخ تنيلان وتوات الكبرى ممن كان يتشرف طالب العلم بالأخذ عنهم واستئناساً بالحيوية التي كان يتمتع بها مترجمنا ولهفته على طلب المزيد من العلوم والفنون بالإضافة إلى اشتهاه هؤلاء العلماء والمشائخ (المعاصرين لمرحلة نشأته العلمية) بمجالات تخصصهم. ومن العلماء الذين استلهم منهم الشيخ وحرص على مقامهم العلمي ودروسهم: عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر الأموي التنيلاي (م: قبل سنة 1189هـ-1775م/ و: 1221هـ 1806م)²⁵، ومن أجل العلماء²⁶، عبد الله بن عبد الرحمن بن بعمر²⁷ -التنيلاي-. المشار إليه بالابن في نوازل الغنية البلبالية. والقاضي عبد الحق بن عبد الكريم

17 - بعثمان (عبد الرحمان)، الدور العلمي للزاوية التنيلاية، الملتقى الوطني الرابع لإسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية أبان العصر الحديث 1500-2000م، جامعة أدرار، 19/ 20 ابريل 2010م، ص 07.

18 - تقتضي المناهج التدريسية في الإقليم أن يدرس لكل فن أو علم أو تخصص متن أو مجموعة من المتون المتخصصة بشكل دقيق مثل لامية الأفعال والأجرومية وألفية ابن مالك في مجالات اللغة ومتن المرشد المعين لابن عاشر المغربي ورسالة أبي زيد القيرواني ومختصر خليل في الفقه والدرر اللوامع والجزيرة في القراءات والسلم المرونق للأخضري في المنطق وهكذا بالنسبة للعلوم الأخرى.

19 - عبد الرحمان (بن عمر التنيلاي)، الفهرسة، المخطوط السابق، ص 27.

20 - عبد الله (بن أحمد الفلاني)، المخطوط السابق، ص 01.

21 - ذكر ذلك: باي بلعالم، الرحلة العلية، ج 2، ص 184.

22 - نفسه، ج 2، ص 188.

23 - المهداوي، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ النواتية، ص 17.

24 - البكري (عبد الحميد)، النبذة في تاريخ توات وأعلامها، الجزائر: مطبعة الطباعة العصرية، 2010م، ص 81.

25 - باي بلعالم (محمد)، الرحلة العلية، ج 1، ص 54.

26 - سيدي عمر عبد العزيز، قطف الزهرات، ص 104.

27 - هناك من يسميه بـ:عمر، ومن يسميه ببعمر. (سيدي عمر عبد العزيز، قطف الزهرات، ص 104).

البكري المتوفى (1210هـ/1795م)²⁸، والشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الأموي التتيلاني المهداوي ت(1202هـ - 1787م)²⁹، والشيخ الأديب الشاعر محمد المبروك البوداوي³⁰ المتوفى (1196هـ/1782م). والشيخ محمد بن محمد العالم الزجاجي المتوفى عام (1212هـ-1797م)³¹، وبذلك ينتهي الطور الأول من المسار التعليمي الذي كان حافلاً بالنجاحات والامتيازات العلمية، إلا أن الطور الثاني كان يستلزم منه الخروج إلى خارج أرضه ووطنه بعيداً عن الأهل والأحباب فلم يتوانى الشيخ في ذلك ولم يتردد ولم تدنه همته العلمية على المكوث والانتظار، بل عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى عساه يبلغ ما لم يجده في المنطقة أو أن يظفر بشيوخ يمكنه من تحقيق طموحاته العلمية، وخلال الفترة (1196-1204هـ) - (1782-1790م) سافر الشيخ إلى فاس لإتمام مساره الدراسي فأخذ عن جملة من علمائها المتخصصين أشهرهم الشيخ عبد القادر بن أحمد بن العربي أبو محمد ابن شقرون ت(1219هـ-1804م)³²، والأکید أن قائمة شيوخه بالمغرب لم تتوقف عند شيخ واحد تداولت اسمه المصادر المعروفة التي ترجمت له، بل كانت متنوعة في التخصصات والمجالات العلمية والفقهية ختم بها مراحل التعليم بعدما حصل على مجموعة كبيرة من الإجازات العلمية من طرف شيوخه.

ج- نشاطه العلمي والديني: تشير بعض الكتب إلى أن الشيخ عبد الرحمان بن إدريس بن عمر التتيلاني لا تكاد تجد عالماً من توات في عصره لم يتلمذ على يديه في اللغة وفقهها أو على تلميذ من تلامذته³³، بعد إتمام الشيخ عبد الرحمان بن إدريس مشواره الدراسي اختار مسقط رأسه كمحطة علمية لانطلاقة حياته التعليمية والتدريسية بناءً على مجموعة من المقومات الاقتصادية والبشرية والنفسية التي كان كثيراً ما يعتمد عليها أهل العلم في تفضيلهم لمنطقة على أخرى، ومن ثم بدأ الشيخ تدريسه أين كانت حلقاته تعج بالطلبة والرواد والمستمعين، وقد تخرّج على يديه العديد من التلاميذ فأكملوا مسيرتهم العلمية وتربّعوا للتدريس والإفتاء والقضاء فكان منهم الفقيه والمحدث والنوازي والشاعر الأديب والحكيم. نذكر منهم قياساً: **عبد القادر بن التاقي بن عبد الرحمن التتيلاني** : ت(1253هـ/1837م)³⁴، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن البركة التتيلاني ت(1260هـ-1844م)³⁵.

ح- نشاطه التأليفي المتفق عليه: عُرف الرجل بمشاعره الجياشة، وفي قدرته الفائقة على قرض الشعر، ومما نستشهد له به في هذا المجال رائيته الرائعة في رثاء العالمين الجليلين (الشيخ سيدي عمر بن عبد الرحمان بن عبد

28 - التتميطي (محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق)، جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، مخطوط بخزانة تمنطيط، أدرار، مخطوط، وبخزانة شاري الطيب بن عبد الله كوسام، الورقة 22.

29 - التتيلاني (محمد عبد القادر)، الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف الإدريسيين والعلويين، خزانة كوسام، أدرار، ص 14.

30 - جعفري (أحمد أبا الصافي)، رجال في الذاكرة محمد ابن أب المزمري 1160هـ، دار الغرب، ط3، الجزائر، 2008م، ص 38.

31 - باي بلعالم، الغصن الداني، ص.ص(27-28).

32 - نفسه: ص185.

33 - بلعالم (عبد السلام الأسمر)، أعلام فقه النوازل بمنطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، الملتقى الوطني الرابع، إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية، أبريل 2010م، ص 23.

34 - عمر عبد العزيز، قطف الزهراء، ص81. للتوسع يراجع: - باي بلعالم (محمد)، الرحلة العلية، ج1، ص 36- المهداوي، (عبد القادر بن عمر)، الجواهر اللآلئ من فتاوى الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي، ص247.

35 - نفسه، ص81.

القادر بن سيدي أحمد بن يوسف التنيلاي (1221هـ)، والشيخ سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التنيلاي (1221هـ) أثناء سفرهما حيث ماتا بصحراء توات في يوم واحد وهو يوم الرابع عشر من جمادي الأولى سنة (1221هـ)، ولقد هزّت الحادثة كثيراً من شعراء المنطقة فكتبوا فيها عديد القصائد والمرثيات. وجاءت هذه المراثية في اثنين وثلاثين بيتاً جاء في مطلعها:

ألا في سبيل الله فيما أصابنا من الهمّ والأحزان والضيق والتّكر
لقد غمرتنا الحادثات ببأسها وحلّت بنا الرزايا من حيث لا ندري
فيا لتنيلان أصيب وحيدها وسيدها المرجو للنفع والضر
أبو حفص حليمها وفقيرها وعالمها المرتدي برد الفخر

وله أيضاً الرحلة (محل التحقيق) التي ذكر فيها بعض الأحداث التي شاهدها في طريقه إلى الجزائر، وما شاهده في العاصمة الجزائرية من حرب الإنجليز... إلخ...، هذا ما وقفنا عليه، من آثاره.

خ- وفاته: توفي في جمادى الثانية، بمدينة "سوى"³⁶، ودفن بها، عام 1233هـ - 1817م³⁷، حيث كان قافلاً من الحرمين الشريفين بعد أدائه فريضة الحج³⁸، ولم تتحدّث المصادر عن أسباب تلك الوفاة.

2. قراءة وصفية ونقدية لرحلة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر التنيلاي أ- وصف النسخ وترجمة النساخ:

إن بحثنا في هذه الوثيقة المهمة كان في بادئ الأمر يهدف إلى معالجة بعض الجوانب التاريخية والجغرافية والحضارية الشاملة لمنطقة توات خصوصاً والصحراء الجزائرية على العموم، وبعد التحقيق والتدقيق والتمحيص والمراجعة اكتشفت أن لها قيمة تاريخية وحضارية في تاريخ الجزائر ككل خلال الفترة الحديثة والمعاصرة، وأنه بإمكاننا أن نستخرج منها وقائع وقضايا كثيرة مهمة ضمن هذا المسار ولعل الحظ لم يسعني في استنباط جلها فعمسى أن يقيض لها الله من الباحثين الجادين والمتميزين من يسر أغوارها ويستخرج مكنوناتها بما يخدم تاريخ الأمة الجزائرية، لقد توفرت لدي عدة نسخ من الرحلة المدروسة وهذا بعد البحث في معظم الخزائن التواتية والمكتبات العامة والخاصة سواء في الجزائر أو في غيرها من الأقطار المجاورة، والتي تحتوي على مخطوطات تواتية، أو التي اهتم أربابها بجمع مؤلفات العائلة التنيلاية وكانت البداية بخزانة واحد من خطاطي الجزائر وناسخها الشيخ شاري الطيب بن عبد الله بكوسام (أدرار)، ثم بخزانة مولاي علي سليمان "الادغاغي"³⁹ لتليها فيما بعد (وعلى فترات متباعدة زيارة مباشرة أو عن طريق أحد طلبتنا) خزانة بن الوليد، با عبد الله، (أدرار)، وخزانة الشيخ باي بلعالم-

³⁶ - سيوة، وهي واحة في غربي الفيوم دون فران السودان وهي آخر جنوب مصر. (إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى، ص128).

³⁷ - وذكر في: الرحلة ج2 ص185: أنه توفي سنة: 1033 هـ-1623م، وهو سبق قلم منه، لأنه يذكر بعده أن ميلاده كان سنة 1181هـ-1761م، والصواب ما ذكر في: ج2 ص144، وهو أن وفاته كانت سنة: 1233هـ-1808م.

³⁸ عبد القادر بن عمر المهداوي التنيلاي، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية (مخطوط بخزانة با عبد الله، لصاحبها عبد القادر بن وليد، أدرار)، ص06. محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج36/1.

³⁹ - خزانة مولاي سليمان بن علي بقصر ادغا بلدية تيمي أدرار المشرف عليها هو السيد مولاي علي سليمان الادغاغي .

رحمه الله-⁴⁰ الذي اهتم بالمخطوطات التواتية عامة ومخطوطات العائلة التنيلانية خاصة⁴¹... ولم نقف عند هذا الحد بل تتبعنا فهارس المؤلفات التي اعتمدت الرحلة كمصدر لها، ويكاد كلهم يجزمون بوجود ثلاث نسخ للمخطوط فقط، وهي المتحصل عليها أما عدا ذلك فهي صورة لإحداها لا غير، وفي انتظار ما ستجود به الأيام والأقدار تبقى كل هذه الأحكام نسبية وهو ما نتمناه، وتجنباً للالتباس بين هذه النسخ في إطار الوصف والمقاربة، رمزنا للأولى وهي الأقدم والأكثر اعتماداً في الدراسة بالرمز(ن1) أما الثانية وضعنا لها (ن2). أما الثالثة فرمزنا لها (ن3) «لم نعتد عليها كثيراً».

 وصف النسخة الأم (بخط صاحب الرحلة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر التنيلاني):

- الوصف الظاهري للنسخة الأولى: وهي منقولة غير منسوخة من خط المؤلف بتاريخ 15 ذي القعدة 1244هـ الموافق لـ 20 ماي 1828م. موجودة بخزانة الشيخ الحاج محمد باي بلعالم، الركينة، بأولف (أدرار). وقيل لي أنها موجودة صورة عن الأصل المخطوط بخزانة تمنطيط، (أدرار)، وبخزانة شاري الطيب بن عبد الله بكوسام (أدرار)، النص في غاية الوضوح والكمال إلا في بعض المواطن اليسيرة. وهي بخط مغربي دقيق. هذه النسخة لها قيمة كبيرة فقد نقلت من خط المؤلف كما صرح بذلك الناقل في آخر المخطوط. وقد تكون على أكثر تقدير هي النسخة الأصلية. عدد أوراقها : 12 صفحة، متوسط مسطرتها: يتراوح بين (16-20) سطراً، مقياسها: الطول: يتراوح بين 17سم و16سم / العرض: بين 12سم، 11سم، متوسط عدد الكلمات في كل سطر: ما يزيد أو ينقص عن 10 كلمات، نوع الخط: مغربي ذو حجم صغير، لون الخط: بني من لون السمع الذي يستخدم في المدوأة وهو لون مداد ذلك العصر، لون الورق: أصفر، وهذه النسخة غير تامة وبها الكثير من السقط والتصحيف وبعض العبارات مبهمه وغير واضحة لعدم وجود الربط بينها، كما أن كتابة النسخة سليمة (على المحمل) من حيث الأخطاء اللغوية عدا بعض الألفاظ القليلة والتي في أغلبها هي مصطلحات بالرسم القرآني وليست أخطاء، وفي بعض جوانب النسخة تآكل وتمزيق ولهذا لم أعتمد عليها بشكل تام على الرغم من أنها الأقدم والأقرب إلى عصر المؤلف وهي محفوظة داخل حاوية مع بعض المخطوطات الأخرى.

 وصف النسخة الثانية وناسخها:

- ترجمة الشيخ سيدي أحمد بن أحمد البدوي بن سيد المحضي: هو الشيخ أحمد بن أحمد البدوي بن سيد المحضي بن سيدي عبد الكريم بن البكري، الفقيه اللودعي والأديب المحصل، صاحب المواهب والمكارم، عاش رحمه الله على طريقة مثلى، من العكوف على العلم، والاشتغال بالنظر والتفسير والتدوين: كان فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس مشاركاً في فنون من العربية والفقه والأصول والقراءات والحديث والأدب، ومشواره الدراسي بدأه بتمنطيط حيث حفظ كتاب الله عز وجل، ودرس عدداً من المنظومات على يد والده الفقيه سيد محمد المحضي، ثم بعد اشتداد عوده نقله والده إلى مدينة العلم والعلماء، فترل عند الفقيه المدقق والعالم الكبير سيدي عبد العزيز بن

⁴⁰ - خزانة الشيخ الحاج محمد باي بلعالم بمدرسته بضاحية الركينة بمدينة أولف، أدرار.

⁴¹ - يتجلى ذلك من خلال كتابته في التعريف الشيخ ومكانته العلمية ومؤلفاته.

سيد الحاج، فدرس عنده الفقه والتفسير والنحو والصرف وغير ذلك من العلوم العقلية والشرعية حتى استوفى حظه من العلوم والمعارف، فعاد لتمنيط عالماً من العلماء، مشاركاً في جميع الفنون ومباحثها في النوازل⁴²، عاش حياته في إفادة المسلمين وقضاء مصالحهم حتى توفاه الله بتمنيط،

● **الوصف الظاهري للنسخة الثانية:** تحصلنا على هذه النسخة من خزانة أبا عبد الله بأدرار وهي بخط الناسخ الشيخ سيدي أحمد بن أحمد البدوي بن سيد المحضي عام (1261هـ - 1845م) ومنها نسخ مطابقة بخزانة مولاي سليمان بن علي، بأدغاغ، (أدرار). والتصويبات والإضافات الموجودة فيها تدلُّ على أنه نسخها من النسخة السابقة الذكر أو أنه اعتمد عليها وأكمل الباقي من نسخة أخرى، ومما يُرجح الاحتمال الأول هو التشابه الموجود بينهما خاصة التعليقات والتصويبات المرافقة للنص، **عدد أوراقها:** خمس صفحات ونصف (5.5) من الحجم الكبير العادي مثل: الورق المتوفر الآن، **متوسط مسطرتها:** يتراوح ما بين 20 إلى 23 سطراً، **مقياسها:** الطول: 28سم/ العرض: 21.5سم، **متوسط عدد الكلمات في كل سطر:** يتفاوت ما بين 10 إلى 12 كلمة، **لون الورقة:** أبيض من الورق المستعمل اليوم، **لون الخط:** بني يميل إلى السواد من لون السمع، **نوع الخط:** عادي يشبه خطوط المدرسين في الكتاتيب اليوم ويميل إلى الخط المغربي.

وقد اعتمدتُ عليها كثيراً في إتمام ما نُقص أو ما استشكل في النسخة الأولى خاصة في الإيضاحات الموافقة التي امتازت بها هذه النسخة عن النسخة الأولى في آخرها. وتتضمن هذه النسخة بعض الإسقاطات وحتى الصور المطابقة لهذه النسخة والمتوفرة في خزانات أخرى تجدها على نفس شاكلة النسخة الأم، مما يدلُّ على أن هذه الإسقاطات منذ فترة بعيدة أي قبل الاستنساخ الحديث لهذه الصور..والشيء المميز فيها أنه ليس بها أي تمزيق أو تقطيع، أو خروم، بل هي في شكل حسن، مما يدلُّ على أن ناسخ هذه النسخة الشيخ أحمد بن أحمد البدوي بن سيد المحضي كان يعتني بخزائنه كثيراً، وذلك مقارنةً مع هو قائم في الخزائن الأخرى.

📌 وصف النسخة الثالثة وناسخها:

● **ترجمة الشيخ الحاج شاري الطيب بن عبد الله:** الحاج الطيب شاري بن عبد الله بن سالم بن عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي، من مواليد عام 1943م (كان عمره 63 سنة عام 2014م) ينتمي إلى الأسرة العلمية البلبالية التي تضع تحت يدها خزانة كوسام المقدرة بأكثر من 800 مخطوط، هو إمام مسجد ومشرف على مدرسة قرآنية، بالإضافة إلى أنه الآن يتولى الأمانة العامة لخزانة كوسام، درس في تمنيط، وتلمذ على يد الشيخ سيدي محمد الكبير.. بدأ رحلة النسخ سنة 1979م، علماً أن جده الشيخ سيدي عبد الله البلبالي. كان من أهم خطاطي القرن العشرين في منطقة توات، وكذا عمه الشيخ سيدي عبد الرحمان، أين كانت هذه المهنة تُعدُّ توفيقاً من الله وتيسيراً كما يقول عن ذلك: «بالنسبة لنا على الأقل في العائلة البلبالية لم يكن هذا العمل مهنة، فنحن لا نتقاضى عليها أجراً، وإنما توفيقاً من الله لأننا ننسخ في الغالب ما يوجد في خزائنا، وبالتالي نحن نشعر كأننا في وضعية الدفاع عن الشيء». وتقع خزانة شاري الطيب بن عبد الله في قصر كوسام التابع لبلدية تيمي ولاية أدرار،

⁴² - البكري، النبذة، ص 164.

يبعد عن مقر الولاية بحوالي سبعة كيلومترات، تأسست هذه الخزانة سنة 1278هـ الموافق لـ 1860م على يد الشيخ سيدي عبد الله بن أحمد الحبيب بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم البلبالي، وبعد وفاة الشيخ سيدي عبد الله بن أحمد الحبيب تولى أبنائه وأحفاده الإشراف عليها من بينهم: الشيخ سيدي عبد الرحمن، والشيخ سيدي سالم. وفي الوقت الحالي يتولى الإشراف عليها ناسخ المخطوط محل الدراسة السيد الطيب شاري.

1. الوصف الظاهري للنسخة الثالثة: هي منسوخة حديثاً بتاريخ ألف وأربعمائة وسبعة عشر (1417هـ) الموافق لـ 28 سبتمبر 1996م بخط الحاج الطيب شاري بن عبد الله الذي نقلها عن محمد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد التتيلاني الذي نقلها بأواسط ذي القعدة سنة 1244هـ، وبدوره نقلها من خط الشيخ سيدي عبد الرحمن بن إدريس بن عمر التتيلاني: «وكتبه "عبد الرحمن بن إدريس التتيلاني" -تولاه الله- وبه كتب ناقله من خط "سيدي عبد الرحمن" المذكور، بأواسط ذي القعدة سنة أربعة وأربعين ومائتين وألف (1244هـ)⁴³، عبد ربّه تعالى "محمد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد التتيلاني" -أمّنه الله ووالديه في الدارين⁴⁴ آمين- ونقلها بعده الطيب بن عبد الله بن سالم بن عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي لطف الله به يوم 1996/09/28م- 1417هـ⁴⁵»، ثم أضاف لها الصفحة الرابعة عشر بما نصه: «الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله. قال الثعالبي في جواهره في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾⁴⁶ التين ما نصه: وفي الحديث عن أنس قال. قال رسول الله ﷺ: ﴿إذا بلغ المؤمن خمسين سنة خفف الله حسابه، فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه، فإذا بلغ سبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ ثمانين كتبت حسناته وتجاوز الله عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غفرت ذنوبه وشفّع في أهل بيته وكان أسيراً لله في أرضه، فذا بلغ مائة ولم يعمل شيئاً كتب له مثل ما كان يعمل في صحته، ولم يكتب عليه سيئاته... الخ. في هذه الرحلة أربع محاور: 1. وهم الشعبة (كذا) مع بني ميزاب، 2. ودخول الإنقليز (كذا) إلى الجزائر، 3. وشروط الصلح الذي وقع بينهم، 4. وعدد الكور الذي سقط على المرسى⁴⁷».

تحصّلنا على هذه النسخة من خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام (أدرار)، وهو مخطوط بدون رقم تصنيف، كما أن المخطوط لا يحمل عنواناً خاصاً، والنسخة التي اعتمدنا عليها تتشكل من 13 صفحة، (مع إضافة صفحة أخرى لا ترتبط بمضمون النص) خطها مغربي واضح، ولكن فيها بعض الأخطاء الإملائية، وفي أسماء الأماكن والأعلام ولعلّ العيب في المخطوط الأصلي وليس في الناقل، عدد أوراقها: أربعة عشرة ورقة من الحجم الكبير العادي ذو المربعات الصغيرة، متوسط مسطرتها: يتراوح ما بين 21 إلى 23 سطراً، مقياسها: الطول: 29سم/ العرض: 21.5سم، متوسط عدد الكلمات في كل سطر: يتفاوت ما بين 10 إلى 12 كلمة، لون الورقة: أبيض من الورق المستعمل اليوم ذو المربعات الصغيرة، لون الخط: مكتوبة بقلم جاف لأن الناسخ

⁴³ - بما يوافق 20 ماي 1828م.

⁴⁴ - محذوفة في ن2.

⁴⁵ - الرحلة، ص13،

⁴⁶ - سورة التين، الآية 05.

⁴⁷ - الرحلة، ص14.

معاصر، نوع الخط: عادي يشبه خطوط المدرسين في الكتابات اليوم ويميل إلى الخط المغربي.. وهذه النسخة ليس بها أي تمزيق أو تقطيع أو خروم، بل هي في شكل حسن، كما أن الشيخ ليس بمحدث عهد مع عالم النسخ، فهو يدرك تمام الإدراك أن النسخ كالشهادة إما زور أو عدل، وهو لا يزال بنسخ الكتب المفقودة عنده أو التي خاف عليها من الضياع فقد جمع كل ما تصل إليه يديه من مخطوطات، والنص الذي اعتمدنا عليه في تحقيق هذا المخطوط هو نسخة رابعة مستخلصة من النسخ الثلاث السابقة الذكر، ويجوز ذلك عند المحققين والمؤرخين الأوائل والمعاصرين، ويعرف هذا في مصطلحاتهم العلمية والمنهجية باسم "التلفيق بين النسخ"، إلا أنهم يرجحون طريقة المحدثين والأكثر أماناً في التحقيق، وهي الاعتماد على النسخة الأصلية أو القريبة من عصر المؤلف⁴⁸.

ب. التعريف بالمخطوط

وصف المخطوط:

● نسبة المخطوط إلى صاحبه: مما لاشك فيه أن هذه الرحلة هي للشيخ عبد الرحمن بن إدريس بن عمر الأكبر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنيلاي التواتي، وقد نسبها له الشيخ المهداوي (عبد القادر بن عمر) في سفره (الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية)⁴⁹ وعلى منواله سارت بقية كتب التراجم والسير: (كترجمة وجيزة لبعض علماء إقليمنا التواتي) للشيخ البكراوي (محمد العالم)⁵⁰، و(الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف الإدريسيين والعلويين) للشيخ التنيلاي (محمد عبد القادر بن عمر)⁵¹، و(ذكر بعض علماء توات وتيمي)، و(قرة الأعيان في ذكر علماء تنيلان) للوليد (بن الوليد)⁵²، لتؤكد هذه النسبة مع الكتب والدراسات المعاصرة على نحو ما أورده كل من: الشيخ باي في (الرحلة العلية) والشيخ سيدي عمر عبد العزيز في (قطف الزهرات من أخبار علماء توات) وغيرهم، كما يتضح لنا من خلال واجهة النسخ الثلاث أن المخطوط يُنسب للشيخ عبد الرحمان بن إدريس التنيلاي، ففي مطلع كل نسخة يتم التصريح أن هذه الرحلة لصاحبها الشيخ عبد الرحمان، وهذا نص العبارة: «هذه رحلة السيد عبد الرحمن بن إدريس بن سيدي عومر، بن السيد عبد القادر التواتي التنيلاي أصلاً وداراً ومنشأً إلى الجزائر»⁵³، بالإضافة إلى ورود اسمه مقروناً برحلته في خاتمة المخطوط وهذا نصه: «وكتبه عبد الرحمن بن إدريس التواتي التنيلاي -تولاه الله- وبه كتب ناقله... إلخ»⁵⁴، وتأكيداً لهذه النسبة لا وجود لأي عالم تبني هذه الرحلة سوى عبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر التنيلاي، وهذا ما أجمعت عليه جل المؤلفات الحديثة الصدور والتي ترجمت للشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاي ضمن التأريخ لأعلام المنطقة.

48 - الغرياني الصادق (بن عبد الرحمان)، تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، دار ابن جرم، لبنان، 2006م، ص 28.

49 - مخطوط بخزانة باعبد الله، أدرار

50 - مخطوط بخزانة محمد العالم، المنبعة

51 - خزانة كوسام، أدرار

52 - مخطوطتان بخزانة أبا عبد الله، أدرار

53 - زيادة بخط مخالف لما كتب به نص الرحلة ولعلها من بعض القارئ أو المالكين.

54 - الرحلة، ص 13.

● **إثبات عنوان المخطوط:** إن محتوى المخطوط يؤكد ويتطابق ما جاء في العنوان حيث أن وظيفة الرحلة وغرضها ومقصدها زيارة مدينة الجزائر وهو ما نلمسه من خلال دراستنا للرحلة، ويتضح جلياً في معالم هذا المخطوط، ويكفي أن نطلق اسم رحلة إذا ما توفر في هذا المخطوط شرطاً واحداً يوضحه لنا هذا التعريف: «إن الرحلة هي أنباء عن ذهنية الرحّالة وتصوير لمكونات الوعي الثقافي عنده أكثر مما هي حديث عن البلد موضع المشاهدة أو أخبار عن القوم...»⁵⁵ ومن ثم فإن مستوى الوعي الثقافي للرحلة من خلال الرحلة يتجلى لنا في حرصه الشديد على ذكر المستوى الديني والسياسي والثقافي والأخلاقي والبيئي للشعوب، فلو لم يكن ذو صبغة ثقافية لما اهتم بذلك، ويتضح كذلك من خلال الانتقادات التي كان يتوجه بها إلى بعض المناطق وسكانها بحيث أنه لم يكن يتقبل كل شيء، خاصة في مجال تخصصه -المجال الديني- مثل: انتقاد سكان غرداية وقصورها في توجهاتهم المذهبية (الاباضية) التي تختلف في بعض الفروع عن السنة المالكية.

كما أن الرحلة التواتية في هذه الفترة -القرن الثاني عشر- شهدت تداخلاً وامتزاجاً بينها وبين الفهرسة مثل: (فهرسة عبد الرحمان بن عمر التنيلاي)، و(فهرسة عمر بن عبد القادر التواتي)⁵⁶ إلا أن هذه الرحلة خلت من كل التراجم والسير واتضحت فيها معالم الرحلة التي لم تكن في غيرها من الرحلات التواتية، واكتسبت بعداً آخر، فهي رحلة بكل المواصفات كما ورد في العنوان، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن صاحب الرحلة لم يذكر أنه قد عثّر على رحلته وإنما اكتفى بقوله في آخر المخطوط ما نصه: «هذا تحقيق ما وقع بين صاحب الجزائر "الباشا عمر"، وبين "بدر لنكليزي" -طاغية "اقلنكطر"⁵⁷ دمره الله-، وقطع دابره، بعضه مشاهدة، وبعضه بطريق الخبر من الثقة والسلام»⁵⁸. ونستطيع من خلال هذا أن نسمي هذا المخطوط بـ: «رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنيلاي التواتي إلى الجزائر العاصمة ووصفه لحرب الإنجليز».

● **تاريخ تأليف المخطوط:** إن التاريخ الذي أُلّف فيه الرحلة غير واضح من خلال النسخ الثلاث المتوفرة سواء في مطلعها أو في آخرها، الأمر الذي يستدعي منا أن نضع الاحتمالات الممكنة قصد الوصول إلى المطلوب وهو إيجاد تاريخ افتراضي للرحلة، ومن أهم هذه الاحتمالات الممكنة: هل أن المؤلف كان كلما مرّ على منطقة منذ خروجه يصفها ويدون كل ما شاهده من الأماكن والمناظر..؟ أم أنه ترك ذلك إلى غاية عودته إلى تنيلان واستراحته بها، وربما قد يكون ذلك عند دخوله مدينة الجزائر ولهول الأحداث وكثرتها خشي نسيانها وهذا على افتراض أن الشيخ عبد الرحمان بن إدريس كان يحمل فكرة تدوين رحلته وتسجيلها حتى قبل أن تنطلق..؟ والاحتمال الأخير لم أورده اعتباطاً وإنما كثيراً ما كان الرحّالة القدامى يُعولون على الحفظ لذلك كانت كتاباتهم تذكراً واسترجاعاً لوقائع ومشاهدات مضى عليها زمن طويل⁵⁹، كل هذه الاحتمالات ممكنة لعدم تصريح المؤلف

⁵⁵ - العلوي سعيد (بن سعيد)، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس المملكة المغربية ، 1995م، ص15.

⁵⁶ - التنيلاي (عمر بن عبد القادر)، الفهرسة، ص 72.

⁵⁷ - هكذا يسميها صاحب الرحلة، وهي بالكاف المعقودة: (انكليترا).

⁵⁸ - الرحلة، ص13.

⁵⁹ - سعيد (بن سعيد العلوي)، المصدر السابق، ص 15.

بالتاريخ الحقيقي لتأليفه، ومن أجل إثبات ذلك نسوق مجموعة من الأدلة والبراهين التي تثبت بأن الاحتمال الأول هو الأرجح في هذه الاحتمالات .

أولاً: تؤكد كثرة التواريخ الموجودة ودقتها (خصوصاً عندما يربط التاريخ الهجري بما يوافق بالميلادي) بحيث كان يذكر اليوم والتوقيت الزمني بدقة (فجراً، ظهراً، صباحاً، ...) على أن المؤلف كان يدوّن هذه التواريخ في حينها فلا يمكن استيعابها كلها واستحضارها وقت الحاجة إليها ومنها تاريخ بداية الرحلة: «خرجت من بلدتنا "زاوية تنيان" ثالث الشهر المذكور، وفي ثامن، دخلت بلدة "تيميمون"، قاعدة قرى (قرارة)، وأقيمت فيها تسعة أيام»⁶⁰، وعند دخوله متليلي: «وفي الثالث من رمضان وهو يوم الاثنين، وصلنا (متليلي)، وأقيمت فيها خمسة أيام، في عزٍ وحرمة»⁶¹. وعند خروجه منها: أو (كذا) خرجت منها في السادس، وهو تاسع رمضان بعد الظهر، ووصلت أول قصور "امزاب" وهو (العطف)، بعد صلاة العشاء، وقصوره خمسة: (العطف) و(بُنْر) و(بني يَسْكَن) و(امليكة) و(غرداي)»⁶².... والأمثلة كثيرة.

ثانياً: وصف المناطق والمشاهد بتفاصيلها مثل: قوله: «و(لَقَرَارَ) (كذا) ونعم العرب هم، - كثر الله في عرب المسلمين من أمثالهم-، وهم أهل بيت الرحمة (كذا)، ما رايتُ (كذا) ولا سمعت من يعظّم العلماء وحمّالة (كذا) القرآن مثلهم، ولو قلتُ: إني رأيتُ فيهم من البرور (كذا) والرحمة والرّافة والحنانة (كذا) ما لم اراه (كذا) في والي (كذا) ما كذبت، ولو مرّ بي احدهم (كذا) عشر مرّات؛ لا يمرُّ حتّى يُقبّل يديّ أو كساء (كذا)، وليسو مثل "عرب أحميان" أو "ذو منيع" أو غيرهم من العرب في قلة الدين والنظافة؛ بل هم الغاية في ذلك أهل وضوء وصلاة وزكاة ورحمة، وإبلهم كلّها حمراء الشّعر سوداء الأظفار»⁶³. إن هذه الأوصاف وغيرها كثير يعجز العقل عن التدقيق في وصفها بعد مرور وقت طويل لكثرتها وتعددتها ودقتها، وإن وصفت فلن يكون بتلك الدقة المتناهية لأنّ الذاكرة تعترضها آفة النسيان فتضطرب الوقائع والأحداث في تسلسلها التاريخي، كما أن انطباعات الأُمس تمتزج مع مشاهدات اليوم الموالي في الوصف.

ثالثاً: تحتوي الرحلة على بعض الأحوال الجوية والمناخية التي تدلّ على أن أحداث الرحلة دُوّنت في الطريق والأكثر من ذلك أن هذه الأحوال وصفت بأوقاتها حيث يقول المؤلف: «وفي السّادس والعشرين من رمضان وصلنا "جبل الصحاري" وفيه منازل "بني نايل"، وهذا الجبل ما رايتُ (كذا) مثل طولها وكثرة أشجاره وطولها، وفيه الأنهار المطرّدة، والطّيور المغرّدة، وفيه يوجد "القرمز" الجيّد الكثير، وأقمنا في خيام أصحاب رِفَقَتِنَا "بني نايل" يومين»⁶⁴. ولعلّ أفضل مثال يُؤيد ما نذهب إليه هو ما ذكره أحداث الحملة وتفاصيلها، فقد وصف وبدقة المُطَّلِع المتمكن (رغم أنه لم يقيم في المدينة سوى 37 يوماً)، حجم سفن العدو وتعدادها وقدرات مدافعها والعجيب أن هذه المعلومات تتوافق إلى حدّ التطابق مع رواية وليام سبنسر وجون وولف اللذين يذكران أن عدد السفن كانت

⁶⁰ - الرحلة، ص 1.

⁶¹ - الرحلة، ص 1.

⁶² - الرحلة، ص 2.

⁶³ - الرحلة، ص 3.

⁶⁴ - الرحلة، ص 4.

بين 36 و40 سفينة حربية، إن دقة المعلومات وتوافقها مع الوثائق والمصادر الموثوقة في كثير من الأحيان يدل أن صاحب الرحلة كان يدون رحلته أول بأول ولحظةً بلحظة، وفي ذلك يقول: «وهي: أربعون سفينة، وكلّ سفينة فيها مائة مدفع كبير، كلّ مدفعٍ عمارته قنطار بارود، ونزلوا بعيداً من المدينة، بحيث لا تصلهم الرمية من الجزائر، وأقاموا يومهم ذاك وغدهم كذلك»⁶⁵.

من خلال هذه الأدلة والإثباتات والبراهين يمكننا أن نحكم بأن الرحلة دُوّنت عبر الطريق، فبداية تأليف الرحلة هو بداية انطلاقها من مسقط رأس الشيخ "تتيلان" يوم الاثنين 30 جوان 1816م، وإنهاء التأليف يكون في طريق العودة بعد خروجه من مدينة الجزائر. حيث ذكر أنه مكث بالمدينة سبعة وثلاثون يوماً، أي من يوم الأربعاء 04 شوال 1231هـ الموافق لـ 29 أوت 1816م إلى غاية يوم الجمعة 10 ذي القعدة 1231هـ الموافق لـ 05 أكتوبر 1816م. وفي ذلك يقول: «وأقمتُ بالجزائر سبعة وثلاثين يوماً كاملة، وخرجت يوم ثمانية وثلاثين»⁶⁶. وكانت بداية الرحلة في (السبت 03 شعبان 1231هـ الموافق لـ 30 جوان 1816م) وبحساب السبعة والثلاثين يوماً التي قضاها الشيخ في المدينة يكون قد خرج منها يوم (الجمعة 10 ذي القعدة 1231هـ الموافق لـ 05 أكتوبر 1816م) أي أن عمر الرحلة ككل هو سبعة وتسعون (97) يوماً. وهي المدة التي ألفت فيها الرحلة. وانطلاقاً مما سبق فإن التاريخ الذي انتهى منه من كتابة الرحلة هو نهاية أكتوبر 1816م الموافق لخواتيم شهر ذي القعدة من عام 1231هـ، ولم نحدد تاريخاً مدققاً لآخر تاريخ مفترض لكتابة الرحلة بسبب أن صاحب الرحلة قد ذكر أحداثاً أخرى وهو في طريق العودة بعد خروجه من مدينة الجزائر، أي ما بعد (10 ذي الحجة 1231هـ الموافق لـ 05 أكتوبر 1816م) كقوله: «ولما وقع بالجزائر ما وقع انقطعت الطريق وقلّ الأمان بها في جميع نواحيها، كل قافلة كانت في طريق من طرق الجزائر، وقع فيها النهب والقتل، حتى مضى لذلك نصف شهر ونحوه، من مدينة قسنطينة إلى تلمسان كلها وقع فيها الخلل -في حكمها وحكامها-، لأنّ الناس أيقنوا بخراب الجزائر واستيلاء النصاري عليها، وقد كان ذلك دالاً أن الله تعالى تدارك عباده باللطف»⁶⁷، والتدوين في مسار الرحلة وليس عند بلوغ الغاية منها له إيجابيات وله سلبيات، فمن إيجابيات هذه الطريقة هو التميز بالدقة في وصف الأشياء، والتفصيل في ذكر بعض الملامح الطبيعية والجغرافية مثل الرياح والمطر والتثبت في وضع التواريخ التي يصعب تذكرها ووصفها فيما بعد، ومن سلبيات هذه الطريقة أنها تُفقد أسلوب الصياغة من نسقه اللغوي السليم وبناء التراكمي المتسلسل كترتيب الكلام وتنظيمه وتهذيبه بالنظر إلى ما كان يعانيه الرحّالة من عناء السفر في الطريق فيضطرون إلى الكتابة مع تمهيش واضح للغة المعبر بها والتي غالباً لا تتوافق مع مستوى المدوّن، وهذا خلاف لبعض الرحلات العربية والمغاربية التي كانت تدوّن عند الوصول مما أعطاهما أسلوباً راقياً يأنف من لغة العوام وتعبيرات سمتها العامة الدقة والتنظيم والتثبت.

⁶⁵ - نفسه.

⁶⁶ - نفسه، ص10.

⁶⁷ - نفسه، ص.ص(10-11).

وصف محتوى الرحلة

- **ديباجة المخطوط:** استهل المؤلف رحلته بمقدمة مسجوعة حيث ذكر طبيعة المحتوى المدوّن، ثم حمد الله في أولها على توفيقه وأثنى بالصلاة على النبي ﷺ، اقتداءً وتيمناً بحديث الرسول ﷺ عن أبي هريرة ؓ: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يَبْدَأُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْذَمٌ»⁶⁸، وفي ذلك يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله. [هذه رحلة للشيخ سيد عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني رحمه الله ورضي عنه]⁶⁹، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد»⁷⁰.
- **دوافع الرحلة:** لم يذكر الدوافع التي كانت وراء رحلته إلى الشمال، غير أنه حصرها في مقادير الله، والأرجح أنها الدافع كان للاستكشاف والسياحة. وفي ذلك يقول: «فلما قدر الله سفري لمحروسة ثغر الجزائر»⁷¹.
- **مسار الرحلة:**

■ تحديده لتاريخ ومكان انطلاق الرحلة (من دون تحديد لتوقيتها وتاريخها بالضبط):

انطلقت الرحلة أوائل شعبان 1231هـ وإذا افترضنا حصر عبارة أوائلها بين الواحد والثلاثة من شعبان وهو ما يوافق بالميلادي (الخميس-السبت) (27-29) جوان 1816م حيث يقول في مطلع رحلته: «فلما قدر الله سفري لمحروسة ثغر الجزائر، وكان سفري لها في أوائل شهر شعبان المنير، أحد شهور [سنة] إحدى وثلاثين ومائتين وألف [1231هـ/1816م]، خرجت من بلدتنا»، ولكنه يستدرك فيما بعد ويقول أنه «خرجت من بلدتنا "زاوية تنيلان" ثالث الشهر المذكور» أي أنه انطلق يوم السبت 3 شعبان 1231هـ الموافق لـ 30 جوان 1816م.

■ الطريق من تنيلان إلى غرداي:

- ❖ **ذكر خروجه من تنيلان:** وفي ذلك يقول: «خرجت من بلدتنا "زاوية تنيلان" ثالث الشهر المذكور، وفي ثامنه، دخلت بلدة "تيميمون"، قاعدة قرى (قرارة)، وأقمت فيها تسعة أيام»⁷².
- ❖ **خروجه من قورارة:** وفي ذلك يقول: «وخرجت في العاشر، وهو الثامن عشر منه، قاصداً "مدينة الزاب" وهي حوالي "بني امزاب"، ورفقتني (كذا) "شعانية متليل لبرازفة"، ونعم الرفقة هم مع حرابتهم، رأيت فيهم من الخدمة والطاعة والشفقة (كذا) ما لا أظنه ولا يخطر ببالي كآتي بينهم مثل الأمير في رعيته»⁷³.

⁶⁸ - العسقلاني (أبو الفضل أحمد بن علي)، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، باب استحباب خطبة النكاح، ج3، دار الكتب العلمية، ص-ص (322-323).

⁶⁹ -زيادة بخط الناسخ.

⁷⁰ - مخطوط بخزانة تمطيط، أدرار، مخطوط، وبخزانة شاري الطيب بن عبد الله كوسام، وموجود أيضاً في: بخزانة الشيخ الحاج محمد باي بلعالم، الركينة، أولف، أدرار، بخزانة مولاي سليمان بن علي، أدغاغ، أدرار- بخزانة بن الوليد، با عبد الله، أدرار. ص1.

⁷¹ - الرحلة، ص1.

⁷² - الرحلة، ص1.

⁷³ - الرحلة، ص1.

❖ **مروره على القليعة (المنبعة) وقصري أولاد زيد وأولاد عائشة:** وفي ذلك يقول: «وَمَرَرْنَا فِي طَرِيقِنَا عَلَى الْبَلَدَةِ الْمَسْمُوتِ (كذا) "لُكْلَيْعَ" وهي "للشعانية" أيضاً، لما في (...) (أولاد زيد) و(أولاد عائشة)، يوم التاسع من خروجنا من (قرارة)»⁷⁴.

❖ **دخوله متليلى ومدحه لأهلها:** وفي ذلك يقول: «وفي الثالث من رمضان وهو يوم الاثنين، وصلنا (متليلى)، وأقمْتُ فيها خمسة أيام، في عزٍّ وحرمةٍ»⁷⁵.

❖ **وصفه للحرب التي بين الشعانية وأهل امزاب:** وفي ذلك يقول: «وبين أهلها (الشعانية) وبين (أهل امزاب) من الحرب والقتال ما لا يوصف، الشعانية يعتقدون أنَّ قتال (بني امزاب) مثل جهاد الكفار، ولا يعدُّون الرَّجل منهم رجلاً حتى يقتل قتيلاً من "بني امزاب"، ويغالون في ذلك، حتى أنَّ الشعاني يفتخر ويقول: «قتلت بحمد الله سبعة من بني امزاب»، وآخر يقول: «ثلاثة»، وهكذا، وقتلهم لهم ليس على ما يعهد بين القبائل - أنفة أو حمية -، بل قتالهم لهم حقيقة إنَّما كان لسبب اعتزالهم وخروجهم عن مذاهب أهل السنة. و"بني امزاب" اعتقاد عوامهم وعلمائهم: «إذا عَرَّقَ أحدهم في طلب سُنِّي يقتله، غفر الله له قبل أن يجفَّ عرقه»، وبين "متليلى" وبلاد "امزاب" قدر نصف يوم»⁷⁶.

❖ **خروجه من متليلى، ووصوله العطف أول قصور امزاب:** وفي ذلك يقول: «أو(كذا) خرجت منها في السادس، وهو تاسع رمضان بعد الظهر، ووصلت أول قصور "امزاب" وهو (العطف)، بعد صلاة العشاء، وقصوره خمسة: (العطف) و(بُئْر) و(بني يَسْكُنْ) و(امليكة) و(غرداي)»⁷⁷.

❖ **رأيه الشخصي في المذهب الإباضي وأتباعه ومحاورته مع علماء امزاب، مع ذكره شيء من أفكار الإباضية:** وفي ذلك يقول: «وكلَّهم على ضلالة واعتزال، وقد اجتمعت مع فقهاءهم وتفاوضت معهم، فوجدتهم متمذبيين بالمذاهب الباطلة، ولا يعرفون شيئاً من أصول المذاهب الأربعة ولا من فروعهم، وُضُوؤهم مخالف لوضوئنا وصلاتهم كذلك، وأذانهم كذلك، والجمعة ساقطة عندهم، وسألتُ كبير فقهاءهم وهو: الحاج "إبراهيم بن بحمان الغروآء(كذا)"، عن سبب عدم إقامتهم لصلاة الجمعة فقال لي: «مذهبنا أنَّها لا تُقام إلاَّ خلف إمام معصوم، ولا نجد من نعتقد عصمته»، وأما عقيدتهم فقَبَّحهم الله وقَبَّحها، تكلَّمتُ في شيء منها مع احد(كذا) فقهاءهم يسمى: "الشيخ باعمور"(كذا)، فقال لي: «الله لا يعلم الشَّيء(كذا) إلاَّ بعد وقوعه، والعبد له قدرة على خلق جميع أفعاله التي له طاقةٌ بها، وما لا طاقة له بها فمن الله»⁷⁸، وسألتهم عن إمامهم الذي يعتقدونه ويتمدُّبون به، فقالوا: «إمامنا: "أبو مصعب"»، وعندهم خزائن من كُتُب علمهم، طالعت البعض منها، وهو المسمى

⁷⁴ - الرحلة، ص 1.

⁷⁵ - الرحلة، ص 1.

⁷⁶ - الرحلة، ص 1.

⁷⁷ - الرحلة، ص 2.

⁷⁸ - نفسه.

عندهم بـ: "القسطاس"، وهو الذي يتداولونه مثل (مختصر خليل) عندنا، بل مثل (الرسالة)، لأنَّ أوَّله مبدوء بفنِّ العقائد، وتراجم فصوله وأبوابه 1878، وهو على أربعة أجزاءٍ كَبَّار»⁷⁹.

❖ مدحه لقصر مليكة ووصفه للحالة السياسية والأمنية بقصور إقليم ميزاب: وفي ذلك يقول: «وألقي الله بين قصورهم من العداوة والحرب ما لا يوصف، مثل (أهل فجيج) على ما بلغني أو أكثر، ما عدا قرية (امليك) (كذا) فإنَّها برية (كذا) من هذه الضَّلالة، وأهلها يسموهم: "المالكية". وما عداهم "عزَّابة" ولا يأنفون من هذا الاسم، حتَّى أن أحدهم إذا كتب كتاباً يقول فيه: «من عزَّابة غرداي (كذا)»، أو: «من عزَّابة بني يسكن (كذا) إلى فلان»، بل ربما يفتخرون بذلك، والأمان والعافية التي توجد عندهم لا يوجد مثل ذلك عند غيرهم، لا (...). في طاعة مولانا سليمان نصره الله، ولا في طاعة سلطان الجزائر ووهران وتلمسان، تجد الحرب بينهم قائمة على ساق، والتَّاجر الغريب يذهب ويحيى بماله من غير خوفٍ عليه ولا على ماله، ولو أن (كذا) للرَّجل ألف قنطار ذهباً وتركه خارج البلد، أو في أحد زقَّتْها (كذا) ما خاف عليه ولا اهتمَّ به، وإذا سرق السَّارق عندهم يجتمع عليه أكابر البلد ويدبجونه في المجزرة، من غير فرقٍ بين شريفٍ ومشروفٍ، ووضيعٍ ورفيع، وقليل السَّرقة وكثيرها سواء. وقاعدة هذه القصور "غرداي" (كذا)، وكلَّهم أهل نخيل وشجر ونخيلهم ما رايت (كذا) مثل صلاحه في (توات) ولا في (تفاللت) ولا في "الفايجة" (كذا)، إلا أنَّ الماء عندهم لا يجري وحده بل يُجرُّوهُ بالبعال والحميز والإبل، ويحطُّ (كذا) فيها من العُربان ما لا يُحدُّ ولا يوصف، ويجلبون إليها من الصُّوف والسَّمْن والغنم والزَّرْع ما فوق الكافية (كذا)، وهم في التسمية تحت طاعة صاحب الجزائر، وفي الحقيقة ليسوا تحت طاعة احد (كذا)، وعندهم من صنوف الأموال ما لا يوجد عند غيرهم من أهل الصحراء، وتلك همَّتْهم ودينهم»⁸⁰.

❖ ذكره لعرب النوايل الذين رافقوه في رحلته ووصف ما هم عليه من الأدب وحبِّ النظافة: وفي ذلك يقول: «وأقيمت ببلدة (امليك) (كذا) ثمانية أيام في عزِّ ورفعةٍ وأمان، وخرجتُ منها قبل طلوع الفجر بكثير، يوم التاسع وهو الثامن عشر من رمضان مع "عرب النوايل" (كذا). وهم [ما ذكر من حسن عرب النوايل] أكثر قبائل العرب رجالاً وماشيةً وخيلاً، ومساكنهم ما بين مدينة أفسُطَين (كذا) و"الجزائر" وبسعادة (كذا) و"واد الخير امزاب" و"ورقل (كذا)"⁸¹».

❖ إقامته في قصر القراة (بريان) ووصف ما هم عليه من طيبة وتكافل ونظافة: وفي ذلك يقول: «و(لَقَرَّار) (كذا) ونعم العرب هم، -كثَّر الله في عرب المسلمين من أمثالهم-، وهم أهل بيت الرحمة (كذا)، ما رايتُ (كذا) ولا سمعت من يعظَّم العلماء وحمَّالة (كذا) القرآن مثلهم، ولو قلتُ: إني رأيتُ فيهم من البرور (كذا) والرحمة والرَّافة والحنانة (كذا) ما لم اراه (كذا) في والي (كذا) ما كذبت، ولو مرَّ بي احدهم (كذا) عشر مرَّات؛ لا

⁷⁹ - نفسه.

⁸⁰ - الرحلة، ص3

⁸¹ - الرحلة، ص3.

يَمُرُّ حَتَّى يُقْبَلَ يَدَيَّ أَوْ كَسَاءِ (كذا) ، وليسو مثل "عرب أحميان" أو "ذو منيع" أو غيرهم من العرب في قلة الدين والنظافة؛ بل هم الغاية في ذلك أهل وضوء وصلاة وزكاة ورحمة، وإبلهم كلها حمراء الشَّعر سوداء الأظفار»⁸².

■ الطريق من غرداي إلى مدينة الجزائر:

❖ إقامته في إقليم بني نائل ووصفٌ للحياة الطبيعية بها: وفي ذلك يقول: «وفي السادس والعشرين من رمضان وصلنا "جبل الصحاري" وفيه منازل "بني نائل"، وهذا الجبل ما رايتُ (كذا) مثل طولهِ وكثرة أشجارهِ وطولها، وفيه الأنهار المُطرَدَّة، والطُيور المُغرَدَّة، وفيه يوجد "القرمز" الجيد الكثير، وأقمنا في خيام أصحاب رِفْقَتِنَا "بني نائل" يومين»⁸³.

❖ دخوله إقليم التيطري (المدينة) يوم عيد الفطر: وفي ذلك يقول: «وفي الثالث خرجت [مع] رجال من "بني امزاب" قاصدين "مدينة تطر" وهي أوَّل عَمَالَة صاحب الجزائر من هاذِه (كذا) الطريق، وتُسمى أيضاً "المدني" (كذا) وفيها "الباي إبراهيم"، ودخلناها يوم الأحد عند الفطر، وأقمنا فيها يومنا ذلك»⁸⁴.

❖ دخوله مدينة البليدة وانبهاره بحسنها، كما تسوّق فيها: ثم دخل مدينة البليدة للتسوق والتزود بالمؤونة، ولم يمكث فيها نصف يوم حيث غادرها بعد الظهر مباشرة، وسجل فيها انبهاره بطبيعتها الخلابة ومناظرها الحسنة، وفي ذلك يقول: «وفي غدٍ خرجنا منها عند الظُّهر، ومشينا يوماً (كذا) ذاك وكثيراً من الليل (كذا) ، وأصبحنا عند المدينة المسماة (كذا) "لَبْلَيْد"، وما أحسنها وأظرافها (كذا) ، جازت (كذا) جميع المحاسن، وهي عروس ذلك الإقليم، ولا يوجد لها فيه نظير، واشترينا فيها ما نحتاجه ليومنا ذاك من خبزٍ أو إدام أو فاكهة، ومشينا عنها»⁸⁵.

❖ دخوله أرض متيجة ومببته بها: «وعند العصر دخلنا أرض "متّج" (كذا)، ومشينا فيها إلى الغروب، وبُتْنَا هناك، ومن هناك يُسمَعُ هديرَ البحر وتلاطم أمواجه»⁸⁶.

■ إقامته بدار السلطان ووصفه للحملة الأوروبية المشتركة:

❖ دخوله إلى مدينة الجزائر (دار السلطان): «فلما قَرُبَ طلوع الفجر⁸⁷ مشينا داخلين للجزائر ودخلناها وسط الضحى-ذلك اليوم-، وهو يوم الأربعاء، ونزلت في الفندق الجديد بـ"باب عزوز" (كذا) اكترتُ فيه بيتاً، وأقمتُ فيه ذاك اليوم»⁸⁸.

❖ تعرفه على الفقيه الحسن بن مصطفى الجزائري بن قاضي مالكية الجزائر: وفي اليوم الموالي وبعد أن أخذ قسطاً من الراحة ذكر صاحب الرحلة لقاءه الفقيه الحسن بن مصطفى الجزائري (بن قاضي مالكية الجزائر) وتعرفه

⁸² - نفسه، ص3.

⁸³ - الرحلة، ص4.

⁸⁴ - نفسه، ص4.

⁸⁵ - نفسه، ص4.

⁸⁶ - الرحلة، صص(4-5).

⁸⁷ - أي فجر يوم الأربعاء 04 شوال 1231هـ / 29 أوت 1816م.

⁸⁸ - الرحلة، ص5.

عليه من دون أن يذكر كيف تعرّف عليه ومن هو واسطة العلاقة بين الرجلين، وسرعة اجتماعه به لا توحى بسابق معرفة بينهما بقدر ما تؤكد أن صاحب الرحلة دخل العاصمة بتوصية سابقة وعلم مسبق برجالها وإلا كيف نفسر هذه المحبة الأكيدة والمودة القوية حتى أهما كانا لا يفترقان في غالب الأوقات... ولا أظن واستثناساً بما سبق أن 37 يوماً التي قضاها صاحب الرحلة في مدينة الجزائر قد أقامها كلها في الفندق، وكيف يكون ذلك وبیت قاضي المالكية مفتوح. وفي هذا يقول: «وفي غده يوم الخميس اجتمعت بقاضي المالكية في الجزائر، وهو: الفقيه الأجل سيدي الحسن بن قاضي المالكية سيدي الحاج مصطفى الجزائري أصلاً وداراً وتعارفت معه ووقعَت بيني وبينه محبة أكيدة، حتّى صرنا لا نفترق في غالب أوقاتنا، -فجزاه الله عني في الدارين خيراً-»⁸⁹.

❖ وصفه لتزول الحملة الانجليزية الهولندية على مدينة الجزائر: «فلما كان يوم الأحد من شهر تاريخه عند العصر، نزلت سفن عدوّ الله "بدرٍ لنكليز" قرب "الجزائر" في البحر» والمتتبع لحالة السرد الوصفي لصاحب الرحلة يظن أن اليوم المقصود هو يوم الأحد 08 شوال 1231هـ/ 02 سبتمبر 1816م تبعاً لتسلسل الأحداث كما عودنا فيما سبق وهو ظن خاطئ غير صحيح. ويبدو أن صاحب الرحلة انتبه بعد سرد مستطرف لبعض المواقف والأحداث كتزوله العاصمة واستجاره غرفة بفندق ولقائه بقاضي المالكية في الجزائر أنه من الضروري العودة إلى السياق الزمني للأحداث فاستدرك هذا الحشو بالرجوع إلى أصل الحدث وبدايته. واعتماداً على جملة الوثائق التاريخية والمصادر الأجنبية الموثقة نجد أن الأحد المقصود هو الموافق لـ 26 أوت 1816م بما يوافق 01 شوال 1231هـ وهو التاريخ المتفق عليه لتزول الحملة على سواحل المدينة. ومن المعلوم أن صاحب الرحلة في هذا التاريخ كان غائباً عن مدينة الجزائر حيث يصادف هذا اليوم دخوله مدينة المدينة، وقد أكّد صاحب الرحلة في ختام رحلته هذه أنه لم يكتفي في روايته على المشاهدة العيانية فقط بل استأنس أيضاً بالرواة الثقافة، ولعل قصة هذه الحملة وتفاصيلها كانت من ضمن ما تناقش به مع الشيخ الحسن بن مصطفى الجزائري في لقاءهما وجلساتهما حيث كانا لا يفترقان مطلقاً، ثم وصف صاحب الرحلة وبدقة المطلع المتمكن (ولم يقم في المدينة سوى 37 يوماً)، حجم سفن العدو وتعدادها وقدرات مدافعها والعجيب أن هذه المعلومات تتوافق حد التطابق مع رواية وليام سبنسر وجون وولف اللذين يذكران أن عدد السفن كانت بين 36 و40 سفينة حربية، إن دقة المعلومات وتوافقها مع الوثائق والمصادر الموثوقة يدل أن صاحب الرحلة قد استقى معلوماته من جهات رسمية قريبة من رجال الحكم آنذاك، وفي ذلك يقول: «وهي: أربعون سفينة، وكلّ سفينة فيها مائة مدفع كبير، كلّ مدفع عمارته قنطار بارود، ونزلوا بعيداً من المدينة، بحيث لا تصلهم الرمية من الجزائر، وأقاموا يومهم ذاك وغدهم كذلك»⁹⁰.

❖ وصفه لخديعة اكسموث ومحتوى الرسالة التي بعث بها إلى الداوي عمر: «وفي ضحى صبيحة الثلاثاء بذلوا جميع أعلام سفنهم، وجعلوها بعد أن كانت سوداء من الأعلام البيض، وهي أعلام الصلح والعافية، بخلاف السود فهي أعلام الحرب، هذا هو اصطلاحهم» المقصود هنا هو يوم الثلاثاء 03 شوال 1231هـ/ 28 أوت

89 - نفسه.

90 - نفسه.

1816م. بمعنى أنه بعد أن اعتمد في الاستدراك السابق (بداية نزول الحملة) على رواية غيره ممن يثق عاد ليستند في سرد خدعة الانجليز إلى المشاهدة العيانية. لأنه في فجر هذا اليوم دخل الجزائر، وبما أن المهلة التي منحت للداي للجواب قد انتهت (ثلاث ساعات)، فقد تحرك الأسطول الإنجليزي حاملاً علم الهدنة، واتخذ موقعاً مناسباً يوم 27 أوت 1816م وكانت تساعد بواخر هولندية يقودها "فان كابلان" وانفصلت سفينة إكسماوث الملكية (تشارلوت) ذات المائة والعشرون فوهة نارية عن الأسطول وشقت طريقها نحو الميناء وتبعها سفن أخرى، وعندما أخذت السفن البريطانية مواقعها تبعها السفن الهولندية، وقد حاول أحد القباطنة الجزائريون ضرب سفينة إكسماوث عندما أخذت تقترب من الميناء فبعث إلى وكيل الخرج وأخبره بأن العمارة دخلت المرسى ويجب ضربها قبل أن تدخل تحت الأبراج لأنها إن دخلت أهلكتنا، فأجابهم بأن السفينة تحمل راية السلام فأصروا عليه وقالوا بأن ذلك مجرد خدعة، فقال وكيل الخرج من ضربها بالمدفع قتلته، إلا إذا أتانا الأمر من الأمير، غير أن الداي أظهر الكثير من اللامبالاة والتصميم، حيث ضيع الوقت ولم يعط الأمر للمدفعين بإطلاق النار، وبينما الوضع كذلك قامت إحدى المدافع بإطلاق ثلاث طلقات، عند ذلك أطلق العدو وابلاً من القنابل حتى بلغ عددها أربعة وثلاثون ألف قذيفة من القنابل الكبيرة والصغيرة وقتلت في حينها خمسمائة جندي تركي وجرحت ألف آخرين من السكان المدنيين⁹¹، وقراءة عابرة لمضمون نص الرسالة الأولى للورد اكسموث التي دوّنها صاحب الرحلة وبناءً على اللغة التي كتبت بها نستنتج أن صاحب الرحلة لم يطلع على النص المكتوب إطلاقاً وإنما روي له، فعبر عنه بلغته وبمستواه السياسي وبيئته الاجتماعية، حيث جاء في نص الرسالة الأصلي التي أرسلها للورد من سفينة شارلوت ما يلي: «نظراً لأعمال القسوة التي قمتم بها في عنابة ضد مدنيين عزّل من المسيحيين، ونظراً لإهمالهم غير اللائق للمطالب التي قدمتها إليكم باسم الوصي على عرش إنجلترا، فإن الأسطول الذي تحت قيادتي قد قام بمعاقبكم بتدمير أسطولكم البحري تدميراً تاماً وتخريب دار الصناعة، ونصف المدفعية. وحيث أن إنجلترا لم تعلن الحرب لتدمير المدن، ولا نحاول تحميل تبعات قسوتكم الشخصية للسكان الأبرياء، فإنني أقدم إليكم نفس الشروط التي قدمتها يوم أمس باسم ملكي، وإذا لم تقبلوها فيجب أن لا تأملوا في السلام مع بريطانيا، وإذا قبلتم هذه الشروط كما يجب عليكم، فستطلقون ثلاث طلقات بالمدافع، وسأعتبر صمتكم رفضاً لهذه الشروط، واتخذ الإجراءات الملائمة لاستئناف الهجوم أعرض عليكم هذه الشروط، بشرط أن لا يكون قنصل إنجلترا والضباط والجنود الذين اعتقلوا بنذالة في مركب تابع للأسطول البريطاني قد عوملوا معاملة سيئة، وكذلك جميع العبيد المسيحيين الذين يوجدون حالياً تحت سلطانكم وأنا أطلب بأن يُعاد إليّ القنصل وجميع ضباطي وجنودي وذلك طبقاً لنصوص المعاهدات القديمة»⁹²

⁹¹ - للتوسع يراجع: - عموره عمار، الجزائر بوابة التاريخ من ما قبل التاريخ إلى غاية 1962م، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص60 - أحمد الشريف الزهار، مذكرات، ص122. - وليم سينسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص160 - أحمد الشريف الزهار، مذكرات، ص197. - جون ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، تر. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص445.

⁹² - للتوسع يراجع: - وليم سينسر، المصدر السابق، ص160 - جون ب. وولف، المصدر السابق، ص445.

وذكر صاحب الرسالة نصاً آخر يكاد لا يتطابق معها: يقول عبد الرحمان بن إدريس التلياني: «وكتب كتاباً مضمناً (كذا): «اعلم إني جئتكم ناصحاً ومصلحاً، أنظر هذا سلطان المغرب أحسن منك نسباً، وأقوى مالأ وأعظم جنداً، وأكثر بلاداً، كان مع جميع أجناس النصارى صلحاً (كذا) وعافية، وهو على دينه، وهم على أديانهم، وأنظر "صاحب تونس" وهو ضدك وأخوك، صالحاً مع جميع جنس النصارى، و"صاحب طرابلس" كذلك، كل واحد على دينه، وكلهم صلحاً وعافية، وما فيهم من عادي (كذا) النصارى وكأنّ الجهاد ما فرض إلاّ عليك، ولو كنت عاقلاً لاقتديت بمثلك، ولا تظنّ أنّي مثل النصارى الذين تعرفهم، وكنت تلاعبهم، مثل "افرانصيص"، "واصبانيول"، "وافلامينك"، "وجنويز"، ودُبر"، وعدّد عليه قبائل النصارى، بل أنا: "بدر صاحب أفلقطر"، وعندني ألفي قلاع، جيتك منها (كذا) بأربعين، وأعظم من صنيعة كلّ، الأسارى ما كان يفعل ذلك غيرك وهذا لا يرتضيه عاقل، يكون أجود (كذا) الروم، وأبناء رؤسائهم السلاسل في أعناقهم، والقيود في أرجلهم، يخدمون خدمة العبيد، وأجود المسلمين كذلك، وأنت سبب ذلك، واليوم أترك عنك هذا وأبدله بالصلح، وإنّ أبيت عن الصلح فنعم، ولكن أخذ الأسارى لا يكون بيننا، وشاور على هذا نفسك وكبراء دولتك، وأجلتلك ساعتين، وأبعث بهذا الكتاب مع شاوش له»⁹³.

❖ ذكره لموقف الداي وتبرير التأخر في الرد على رسالة اكسموث: «فلما بلغ الكتاب صاحب الجزائر، وجد أكابر البلد ورؤساء الجند مفترقين في الجثات، لأن هذه الواقعة وقعت في فصل الخريف، وعادة البلد أن كل من عنده جنّان يكون سكناه فيه ذلك الوقت، فتعطّل الجواب عن النصراني»⁹⁴، وهنا يذكر صاحب الرحلة أن أكابر البلد ورؤساء الجند كانوا مشغولين في أراضيهم ومزارعهم وبعمليّة الحرث والبذر لأن هذا موسمها ومبرر اشتغال قادة الدولة وضباطها بالأرض مبرر يكاد ينفرد به صاحب الرحلة عن بقية مبررات تأخر الداي في الرد، مما أدى إلى الكارثة التي حلّت بالمدينة وسكانها الأبرياء. وفي رواية جون وولف أنه: «وبينما كان الجزائريون يدرسون الإنذار، تحرّك الأسطول الإنجليزي- الهولندي- بسرعة واتخذ وضعاً يسمح له بأن يطلق النار ويصيب الهدف عبر الرصيف البحري والميناء»، والراجح أن الحجة التي يعتمد عليها صاحب الرحلة غير مستساغة منطقياً فكيف لضباط كبار ومسؤولين عن دولة وشعب يتهددهم خطر خارجي وشيك وهم منشغلون بمصالحهم الشخصية، وقد اختلفت الآراء في سبب ذلك، فهناك من يذكر أنّه قام بالمطالعة في جوابه النهائي ليستعد للمعركة، غير أن الشريف الزهار ينفي علم الداي عمر باشا بوصول الأسطول الإنجليزي إلى الجزائر، ولم تصله البرقية التي بعثها اللورد إكسماوث لأنّه كان نائماً، حيث أن قائد المرسى ذهب إلى الداي بدار الإمارة فوجده نائماً فلم يوقظه حتّى انتهى الأجل فرجع الزورق الإنجليزي بالجواب السلي، لكن يرجح أن يكون الداي عمر باشا قد تأخر في الجواب حتّى يستعد للمواجهة، ويستقدم القوات العربية، وما يؤكّد هذا الطرح قيامه بتحسينات حول المدينة، بمجرد أنّه أحس بتحركات الأساطيل الأوروبية الحربية.

⁹³ - الرحلة، ص.ص (5-6).

⁹⁴ - يراجع: جون ب. وولف، المصدر نفسه، ص 445.

❖ ذكره لخداع العدو وخيانة قائد مدفعية المرسى علي: وعن خدعة العدو وخيانة القائد يقول صاحب الرحلة: « ودخل بسفنه لداخل مرسى الجزائر، وأراد الذين هناك يضربونه بالمدافع(كذا)، فحلف لهم القايد(كذا) عليهم يسمى "علي قايد المرسى": «لا مدّ (كذا) أحدكم يده للضرب إلا قطعته له، قيل: إنّ النصراني رشاه على ذلك بخمسين قنطاراً، وقيل بخمسة وعشرين وقيل بخمسة عشر»⁹⁵، ويمكن الجزم أن هذه الوثيقة المخطوط هي المصدر الوحيد الذي يذكر اسم القائد العسكري الذي خان وطنه، كما أنه الوحيد الذي تطرق إلى ذكر قيمة الرشوة التي تقاضاها مقابل الخيانة.

❖ ذكره بالتفاصيل (المكان والزمان وحجم الضرر ونوع وعدد المقذوفات) لعملية القصف: يقول صاحب الرحلة في ذلك: «فلما استقرّ النصراني بوسط المرسى، كان أوّل ما بدأ به [أن] أسقط الماء الداخل لشرب البلد وما يتطهّرون به، رمى ساقية الماء بثلاثة مدافع، ثم والى(كذا) على المدينة بالبارود، وذلك بعد صلاة الظّهر، وقبل العصر»⁹⁶، فلم يزل يواليه عليها حتّى قارب نصف الليل، ومدة ذلك على التّحقيق أحد عشر ساعة غير سدس⁹⁷ بالمكانة المحققة، وعدد الكور الذي رمى به: إحدى وأربعين ألف كورة⁹⁸، على ما أخبر به شاوشه الذي عقد الصلح مع صاحب الجزائر، وبعد استقراره بالمرسى وتمكّنه أحرق جميع سفن⁹⁹ الجزائر، وهي أربعة عشر سفينة كبار(كذا) جدّاً، فتلاثة عشر أحرقها حتّى لم يبق لها أثر، والرابعة عشر بقي شيء منها»¹⁰⁰.

❖ ذكره لحالة المدينة وأهلها بعد توقف القصف عند حلول الليل: إن الوصف الذي ذكره صاحب الرحلة للدمار الذي خلفه القصف، وحال الناس وإرجافهم بعد أهوال ما مرّ بهم هو وصف لشاهد عيان ينذر أن تعثر له على نظير في مجمل المصادر التي تحدّثت عن الحملة الانجليزية الهولندية على مدينة الجزائر. وفي ذلك يقول: «وحرقة للسفن وهو أعظم نكايه لم يبق فوقها نكايه، وصارت تلك الليلة في الجزائر مع نهارها سواء»¹⁰¹، ولولا شدّة المبالغة لقليل: «ضوء تلك اللّيلة أشدّ من ضياء شمس نهارها»، ويا لها من ليلة!، شابت فيها الولدان، أو سقطت فيها الحوامل، واشتدّ فيها البكاء والعويل، وعظّم فيها الكرب والهّم والغمّ فوق ما يوصف ولا يخطر ببال، ولا يقدّر على الحقيقة شاعر ولا عاقل ولا فقيه ولا مدّاح ولا فصيح يصف هذه الواقعة بوصفها الحقيقي، ولا أدري بما أشبهها به؛ أمثل خريز الوادي الكبير أو مثل الرحي أو مثل نزول البرد؟ لا أدري ما يشبه ذلك، وغايته أنّه مثل

⁹⁵ - الرحلة، ص 6.

⁹⁶ - وحوالي الساعة الثالثة والنصف بدأ الجزائريون يطلقون النيران من حامية البرج فردت على ذلك سفينة أمير البحر كوين شارلوت (Quen-charlotte) والفرقاطة لياندر (Leander) واتسع ميدان إطلاق النار بحيث شمل الخط كله، وسرعان ما تجاوبت أكثر من أربعمئة فوهة مدفع.

⁹⁷ - مدة المعركة هي 11 ساعة و56 دقيقة، والتميمي يذكر أنها دامت 11 ساعة و23 دقيقة حسب الرسالة التي بعث بها الداوي عمر إلى السلطان العثماني للتوسع ينظر: - التميمي، بحوث ووثائق، ص 61.

⁹⁸ - يقدر الإنجليز عدد القذائف التي أطلقوها بثلاثين ألف قذيفة أطلق أغلبها على المدينة، التميمي، بحوث ووثائق، ص 68.

⁹⁹ - يقول شونينغ: «تخطمت قوارب المدافع الجزائرية بسرعة ودُمرت الحاميات البحرية وتُركت، ولم تصمد سوى الحاميات السفلى، التي كان يقودها الداوي بنفسه، وفي المساء اشتعلت النيران في الفرقاطة الجزائرية الراسية في الميناء بفعل المواد المحرقة التي رمتها بها القوارب الإنجليزية، ومنها انتقلت النيران إلى السفن الأخرى المتوقفة في الميناء»، التميمي، بحوث ووثائق، ص 67.

¹⁰⁰ - الرحلة، ص 6.

¹⁰¹ - لاحتراق أربع فرقاطات وخمس حرقات وثلاثة قوارب صغيرة في الليل، التميمي، بحوث ووثائق، ص 67.

الرعد القاصف من أوّل بدايته إلى نهايته متصلاً كأنّه مدفع واحد، فلمّا كان نصف الليل (كذا) نادى النصرانيّ بالبيات إلى الصباح نادى في بوقه بعجميته: «حتى نصبح» فسكت البارود»¹⁰².

❖ **ذكره لشروط وقف القتال:** وفي ذلك يقول: «فلمّا كان بعد صلاة الصبح نادى -لعنه الله- في بوقه، نزيد في الحرب أم يكفيننا هذا؟ وعلم صاحب الجزائر أنّه لا طاقة له به¹⁰³ ولا بحربه، فطلب منه العافية فأجابه إليها على شروط¹⁰⁴.

أولها: أن يرُدّ إليه كل أسير عنده، وهم محسوبون عنده في زمامه (كذا) ثلاثة عشر مائة أسير واثنين وثلاثين أسيراً¹⁰⁵ منها من قبيلة كذا: كذا، وكذا¹⁰⁶ ومن قبيلة كذا: كذا وكذا وهكذا، وإن بقي أسير واحد فلا عافية.

وثانيها: أن النصراني خزلهم الله (كذا) كانوا عام أول فادوا (كذا) بعض أولادهم من أصحاب الجزائر، وعددهم أحد عشر مائة أسير، كل أسير بألف ريال -دُرّ الكبير-، فشرط عليه أن يرد عليه جميع ما وقع به الفداء من الرّيال، وإن بقي شيء من ذلك فلا عافية.

وثالثها: أن يطلق "صاحب الجزائر" لهم "وهران" و"عنابة"¹⁰⁷ يكيلون منها الزّرع، ولا يدخل الأتراك بين النصراني وأرباب الزرع -أهل الفلاحة- في ذلك¹⁰⁸، واضطر الداوي بعدها إلى قبول الشروط المتقدمة وأرسل في النهاية "علي راييس" وهو أبرع ضباط البحرية الجزائرية وأكبرهم سمعة، ومعه القنصل السويدي الذي دعاه لمرافقته، إلى الأسطول ليعقد الصلح باسمه مع انجلترا وهولندة.

❖ **ذكر خروجه من المرسى واستقباله وفود الأسرى:** وفي ذلك يقول: «فأجابه إلى جميع ذلك، فوقع الصّلح بينهم¹⁰⁹، وانعقد قيل: خمس سنين، وقيل: سنة، وقيل: خمسة أشهر، ما بلغني تحقيق ذلك عن ثقة، والقاضي المالكي أخبرني بوقوعه سنة، فكتبوا ذلك. وخرج اللّعين من المرسى، وأرسي بسفنه بعيداً منها، حتى وفد عليه ما عند المسلمين من الأسارى¹¹⁰، وأمّا المال فما خرج من المرسى حتى استوفى قبضه¹¹¹»¹¹².

¹⁰² - الرحلة، ص7.

¹⁰³ - يقول وليم سبنسر ناقلاً عن السفير الأمريكي في الجزائر شيلر بصفته شاهد عيان لعملية القصف: "وقد كشفت صبيحة الثامن والعشرين أن الجزائريين كانوا غير قادرين على القيام بأية مقاومة... وخلال اليوم اعترفوا بأنهم قد غلبوا على أمرهم" وليم سبنسر، المصدر السابق، ص160.

¹⁰⁴ - يقول جون ب. وولف: «عندما سكنت المدافع سارع الداوي عمر بعقد السلام بالشروط الأنجليزية - الهولندية، وقد أملى اللورد إكسموث شروط السلام إملاء: إلغاء نظام الرق، وتحرير الأرقاء المسيحيين الموجودين، ودفع تعويض حربي يقدر بخمسمائة ألف فرنك»، جون ب. وولف، المصدر السابق، ص446.

¹⁰⁵ - حسب جون ب. وولف: 1200 أسير، وحسب شونبيرغ 1147 أسير، انظر جون ب. وولف، المصدر السابق، ص446.

¹⁰⁶ - وهم: 707 نابوليطانيين و173 رومياً، و6 توسكانين و28 هولندياً، و226 إسبانياً، و7 يونانيين.

¹⁰⁷ - وهذا شرط انفرد بذكره صاحب الرحلة ولم يرد في أي من المصادر المعروفة التي ذكرت المعاهدة بين الطرفين.

¹⁰⁸ - الرحلة، ص7.

¹⁰⁹ - يقول شونبيرغ: «فاضطر الداوي إلى قبول الشروط المتقدمة وأرسل في النهاية "علي راييس" وهو أبرع ضباط البحرية الجزائرية وأكبرهم سمعة، ومعه القنصل السويدي الذي دعاه لمرافقته، إلى الأسطول ليعقد الصلح باسمه مع انجلترا وهولندة».

¹¹⁰ - وأطلق سراح جميع الأسرى، وألزم عمر نفسه باحترام سيرة السلم في خصوص القضايا البحرية التي تحدت في مؤتمر فينا، انظر وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ص162.

¹¹¹ - كما أعاد الداوي عمر باشا مبلغ 375.000 ألف قرش التي دفعتها له نابولي وسردينيا.

❖ ذكره وقائع ما بعد الحرب والخراب الكبير الذي أصاب الجزائر: وفي ذلك يقول: «وخرَّب الجزائر خراباً عظيماً، لا تقع عينٌ من فيها إلا على الخراب، وزاد الخراب على خمسمائة دار كاملة، وأمَّا الغرف والمنارة فبغير حساب، وأعظم من ذلك كله أسوار "المرسى"، التي هي الحصن الحصين فقد فعل فيه ما يُفعل بالخراب»¹¹³.

❖ ذكره لقيمة برج الفنار في البحرية الجزائرية وما لحق به من خراب: كما تحدّث صاحب الرحلة عن برج الفنار الذي يسمى حالياً منارة بن قوت التي تقع بمدينة دلس (75 كلم شرق بومرداس حالياً)، وسميت كذلك نسبةً إلى اسم مصممها المهندس (بن قوت) الذي لم تتوفر أي تفاصيل عنه وعن أعماله. وأنجزت منارة برج فنار بمنطقة (البساتين) الساحرة في قطعة أرض هي الأعلى والأكثر ولوجاً في البحر ويحدها الميناء و القطاع المحفوظ لقصبة دلس من الشرق وقلعة قديمة من الغرب، يبلغ علوها 25 متراً من سطح الأرض ويصل مدي أشعته الضوئية من مصباحه الضخم إلى زهاء 95 كلم. أما عن الموقع الذي شيدت عليه المنارة فيعود إلى الفترة التي تلت سيطرة خير الدين على حصن البانيون. فييدرو نفارو (قائد البحر الإسباني) بعد أن احتل ساحل مدينة الجزائر شيد حصناً في أكبر جزرها وهو (مكان برج الفنار)، يبعد عن المدينة نحو 300 متر ويجعلها دائماً تحت تهديد مقذوفاته، وذلك سنة 1510م وضاق أهل الجزائر ذرعاً به، وفي عام 1529م تمكن خير الدين من الاستيلاء على الحصن الإسباني وتهدمه وعلى أنقاضه وبجحاته بني البرج والمرسى فيما بعد. وقد كان لهذا البرج دور كبير في قوة البحرية الجزائرية آنذاك ودور أكبر في حماية مدينة الجزائر من الحملات الأوروبية الكثيرة. وفي ذلك يقول: «وأعظم من ذلك أيضاً "برج الفنار" الذي شاع خبره شرقاً وغرباً، براً وبحراً ولم يبق فيه بلد إلا وفيه ذكره، وناهيك بهذه البروج عظيمة، حتى أن وقوده من الزيت كل ليلة قلة زيت، وهي بالجزائري ثلاثة عشر رطلاً على ما قيل، وهذا البرج مما يقع افتخار الجزائر به على سائر مراسي الإسلام، فإنه لا يوجد له نظير، وهو العدة الوافية في تحصين الجزائر وحفظها، فلا يدخل مركب للجزائر ولا يخرج إلا عليه وهذا البرج وحده يكفي في تحصينها ويُعني عن غيره، فما زال عدو الله يُوالي عليه بالكور حتى جعله دكاً وعظمت عليه حسرة الإسلام واشتدت أكثر من غيره بأضعاف كثيرة»¹¹⁴.

❖ ذكره تديم الجامع الأعظم للمالكية وما حلَّ به وبرواده: كما عرَّج صاحب الرحلة على ذكر الخراب الذي حلَّ بأهم معلم ديني بمدينة الجزائر وهو الجامع الكبير الذي أسسه يوسف بن تاشفين سنة (409هـ/ 1018م) ويعدُّ من أقدم مساجد الجزائر. وهو جامع تابع للمالكية من أهل المدينة. كما ذكر الخسائر البشرية والمادية الأخرى التي بالجزائر بعد القصف المتواصل، حيث ذكر اللورد إكسموث في تقريره المقدم إلى برلمان بلاده أن الجزائريين خسروا في هذه المعركة 4000 قتيل وجريح، مع أنه من المعروف أن جيشهم لم يكن يتجاوز 3000، وقتل 136 فارساً تركياً ومن المرجح أن عدد القتلى من الحضّر لم يتجاوز 600 أو 800، وحسب

¹¹² - الرحلة، ص8.

¹¹³ - الرحلة، ص8.

¹¹⁴ - الرحلة، ص8.

قنصل أمريكا بالجزائر وليام شالر فإن عدد القتلى الجزائريين بلغ 500 قتيل¹¹⁵ وفي ذلك يقول: « وكذلك "الجامع الكبير للمالكية"، خرَّبه حتى لم يَبْقَ إلَّا معالمة، ومات من المسلمين ثلاث مائة وإحدى وأربعين رجلاً، وسبعة وأربعين رجلاً أكلهم البارود والكُور، شاهدت في "الجامع الكبير" يوم التاسع بعد القتال، رأس رجل وكتف آخر وكُرْش آخر بمصارينه، كانوا ينقلون خراب "الجامع"، فكل ساعة يجدون مفصلاً من رجل (كذا) الله تعالى يرحم جميعهم ونعم الموت ماتوا به، وقد حدَّثني شيخ القراء بالجزائر "سيدي عبد السلام الجبلي المغربي": «أنَّه كان مع جماعة يدفنون رجلاً من أولاد "الجزائر"، قد ذهب فخذ به وبعض كرَّشه، فلما وضعوه في قبره قهقهه قهقهة كبيرة، حتى فرَّ أكثر من على القبر (كذا)»، قال "الجبلي" فقلت له: «يا شيخ هنيئاً لك الشهادة»، قال: «فمدَّ له إصبعه السَّبابَة»¹¹⁶.

❖ ذكره للنخسائر المادية والبشرية للعدو: كانت خسائر السفن المتحالفة حسب الأخبار العامة تسعمائة وأربعة عشر قتيلاً وجريح (914)، وحسب القنصل وليام شالر بلغت خسائرهم البشرية 833 قتيل، وقد فقدت السفينة الخطية (Impregnable) وحدها، وعلى متنها 200 رجل، وتحطمت كذلك الفرقاطة لياندر (Leander) أما السفن الأخرى فلم تلحقها أضرار بالغة¹¹⁷، أصيب الأميرال إكسموث في هذه المعركة بجرحتين: إحداها في وجهه والأخرى في ساقه¹¹⁸، وفي ذلك يقول: «ومات من النصارى -دمَّهم الله- على ما أخبر به شاوش النصارى ثلاثمائة رامي في سفينة ضربها المسلمون وغرقوها (كذا)، وغير هذا لا تحقيق عند أحد به، وما شاع عند كثير من الناس هناك أنَّه مات من النصارى خمسة عشر مائة، فهو باطل، والتَّحقيق هو ما في السفينة المغربية، فأبَّي ما كتبت ولا نكتب إلَّا ما شاهدته بعيني، أو أخبرني به ثقة، مثل "القاضي المالكي" أو غيره من الثقة في الجزائر. وأقام -عدو الله- في البحر بعيداً، من الجزائر، حتى قضى جميع ما أراد»¹¹⁹.

❖ ذكره لمراسلات الداي عمر مع بآياته في الشرق والغرب وللسلطان العثماني: تحدَّث صاحب الرحلة عن الإجراءات التي قام بها الداي عمر باشا عقب انجلاء سفن العدو وتوقيع الصلح معه، والتي كان منها إرسال برقية عاجلة إلى باي وهران الباي علي قارة (قرايرغلي) (من قرية باغلة من آسيا الصغرى، هو بن أخ الباي محمد الكبير)، وتتضمن تقرير مفصل عن وقائع ما جرى مع الحملة الانجليزية -الهولندية، ولأن العدو أحرق وأعطب جميع السفن الراسية على ساحل مدينة الجزائر فقد طلب منه دعمه لسفينة سيستغلها الوفد الرسمي الذي سيرسله إلى السلطان العثماني في اسطنبول السلطان محمود بن عبد الحميد الأول، لاطلاعه على ما جرى. ويطلب منه دعماً عسكرياً لحماية الأيالة بعد أن انهار أسطولها البحري، مخافة تكرار هجوم آخر، وفي ذلك يقول: «في غَدِ الصُّلح، بعث الجزائر (كذا) وقاساً (كذا) للباي "علي بعلي صاحب وهران" يُعلمه بالخبر ويوجّه إليه سفينة، وفي

¹¹⁵ - للتوسع ينظر: - وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر، تر. إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982م، ص 378.

¹¹⁶ - الرحلة، ص.ص (8-9).

¹¹⁷ - وليام شالر، المصدر السابق، ص 378.

¹¹⁸ - Encyclopédie Des Gens Du Monde, t 10. p 350.

¹¹⁹ - الرحلة، ص 9.

اليوم الخامس وردت عليه تلك السفينة، ووجهها لسلطانه "سلطان محمود صاحب اسطنبول"، وكاتبه بما جرى بينه وبين النصارى، وأعلمه بحقيقة ذلك كله وأكد عليه أن يوجه إليه مراكب»¹²⁰.

❖ ذكره لعمليات الإصلاح والترميم التي بادر بها الداى عمر: وفي ذلك يقول: «ثم اشتغل بإصلاح ما أفسدته النصارى، فكان يحمل الحطب الأخضر لطبخ الجير، وأعدّ لذلك خمسمائة جمل تحمل كل يوم حملة، وجميع القبائل التي حول الجزائر يعطون ثلاثة أيام من عنده برذون (كذا) أو بغلّ حُمْل عليه حملة كل يوم ثلاثة أيام وإلا فحُمْل حمارين لكل يوم ولكل رجل، ومن لا بهيمة له حمل على رأسه أربع حزمات، وألف بغلة لحمل الحجر والجير، وسبعين مُعلّماً للبناء، وأربعة عشر مائة خديم، لكل خديم سبعة موزنات، وللمعلم اثنا عشر موزنات (كذا). فأول ما بدأ بإصلاحه "سور المرسى"، وانفصلت عن الجزائر وهو مشغول بالمرسى، لأن الاعتناء بها ءاكد (كذا) من غيرها، أما الدور والغرف والمنازة فلا يلتفت إليها حتى يفرغ منها، وقد أفرد طائفة من المعلمين لبناء المسجد الكبير المنسوب للمالكية»¹²¹.

❖ ذكره هدم روضة سيدي عبد الرحمن الثعالبي: كما تطرّق صاحب الرحلة إلى ذكر تفاصيل حصرية أخرى تتعلق بالحملة وهي هدم اللورد اكسموث للمنشآت الدينية التي لا علاقة لها بالروح الإنسانية والمسحة الحضارية التي تجسّدها القائد الانجليزي حينما كان يخاطب الداى في إقرار الهدنة وسبب مجيء حملته من هذه المنشآت روضة سيدي عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد توفي سنة 875هـ، وقبة مسجد الحنفية الجديد الذي تأسّس سنة 1660م بأمر من ميليشيا الجزائر وبُني بأموال المؤسسة الوقفية سبل الخير. وفي ذلك يقول: «قلت: وهدم -عدو الله- شيئاً من قبة روضة العلامة الفقيه الإمام الولي أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي -رضي الله عنه-، وكذلك هدم قبة "مسجد الحنفية"، الذي عند سوق الحوت، حسبت فيه أربعة عشر فرمة (كذا)»¹²².

❖ ذكره للمدة التي قضاها في مدينة الجزائر: كما تطرق صاحب الرحلة إلى الحديث عن مدة مكوثه بمدينة الجزائر، ويبدو أن عبد الرحمان بن إدريس التيلاني قد خرج من السياق السردي الذي كان فيه بالحديث عن هذا الموضوع وتبدو هذه اللفتة مع ما سبقها وما سيليهها خارج الموضوع، حيث ذكر أنه مكث بالمدينة سبعا وثلاثون يوماً، أي من يوم الأربعاء 04 شوال 1231هـ الموافق لـ 29 أوت 1816م إلى غاية يوم الجمعة 10 ذي القعدة 1231هـ الموافق لـ 05 أكتوبر 1816م. وفي ذلك يقول: «وأقيمت بالجزائر سبعة وثلاثين يوماً كاملة، وخرجت يوم ثمانية وثلاثين»¹²³.

❖ ذكره وبافتخار العقاب الذي ناله القائد علي (قائد المرسى): ويبدو من الأسلوب المريح الذي سلكه صاحب الرحلة في وصف الطريقة البشعة التي عاقب بها الداى عمر قائد المرسى الذي لم يسمح بقصف سفن

¹²⁰ - الرحلة، ص 9.

¹²¹ - الرحلة، ص 9.

¹²² - الرحلة، ص 10.

¹²³ - الرحلة، ص 10.

العدو عندما تخترق ميناء المدينة وهي تحمل الأعلام البيضاء، أن هذه الطرق والأساليب المقرزة كانت معتادة في زمانهم، وفي ذلك يقول: «وأما قائد المرسى "القائد علي" فإن صاحب الجزائر "باشا عمر" -سَدَّدَهُ اللهُ وسَلَّمَهُ- قتله بيده، صلبه على مدفع وشقَّ رأسه نصفين مثل رأس الكبش وقسَّمه على طوله، بدأ برقبتة يشقه من سلسل ظهره إلى عجب ذنبه، ومن حفرة قلبه كذلك حتى قسَّمه نصفين، ثم قطعهُ أرباعاً، وجعل كل ربع في عمود من حديد وعرزه على "سور المرسى"، وتركه هناك اتعاطاً لغيره»¹²⁴.

❖ ذكره الحالة النفسية لأهالي مدينة الجزائر التي طغى عليها الفزع والإرجاف: إن تطرق صاحب الرحلة للحالة النفسية لأهالي مدينة الجزائر عقب انقضاء الحملة وانجلاء غمة القصف المتواصل يُعد وصفاً حصرياً يندر أن تعثر له عن موضع في الدراسات والمصادر الأخرى التي تحدثت عن الحملة. بل أن وصفه تجاوز إلى الحالة الاجتماعية والاقتصادية ليس للمدينة فقط بل حتى إلى المدن الأخرى التي (ما بين قسنطينة وتلمسان)، كما تطرَّق إلى وصف حالة التسيب الأمني التي أضرت بالطرق والمسالك التجارية، وفي ذلك يقول: «وفي مدَّة إقامتي بها ليس فيها بيع ولا شراء، وعامة أهلها في همٍّ وغمٍّ وغاية خوف من رجوع ذلك النصراني أو غيره من طوائفهم، لِمَا علموا وحققوا من حقدهم عليهم وبغضهم لهم، وكل ساعة يقع إرجاف بالجزائر، وأن النصارى بلغوا موضع كذا، بقصد أخذ الجزائر ووهران حتى فارقتها وهم بهذه الحالة، وزاد في خوفهم أن القوانص الذين يكونون في الثغور -وهم الضُمَّان-، واحد في عنابة وواحد في وهران، وواحد في الجزائر، لما وقعت هذه الواقعة بالجزائر، ذهبوا كلهم وبقيت عُمَّالَةٌ "صاحب الجزائر" بلا قوانص، وذهابهم دليل على الحرب وقلة العافية، ولما وقع بالجزائر ما وقع انقطعت الطريق وقلَّ الأمان بها في جميع نواحيها، كل قافلة كانت في طريق من طرق الجزائر، وقع فيها النهب والقتل، حتى مضى لذلك نصف شهر ونحوه، من مدينة قسنطينة إلى تلمسان كلها وقع فيها الخلل -في حكمها وحكامها-، لأنَّ الناس أيقنوا بخراب الجزائر واستيلاء النصارى عليها، وقد كان ذلك دالاً أن الله تعالى تدارك عباده باللطف»¹²⁵.

❖ ذكره للوضعية الخاطئة للمدافع المركبة في ميناء الجزائر: كما تحدَّث صاحب الرحلة في تحليله لأسباب الهزيمة عن الوضعية الخاطئة للمدافع المركبة في ميناء الجزائر، ذلك أنها نصبت فوهاً لتضرب ما يلي برج الفنار وليس دونه (خارج المرسى) وهو ما جعل كوره تتجاوز بكثير سفن العدو ولا تصيبها، وفي ذلك يقول: «وما حال بين النصارى واحد؛ لا بارود ولا سيوف ولا رجال، وما حال بينهم وبينها إلا هو -سبحانه وتعالى-، لأنَّ الجزائر معظم قتالهم إنما يكون بالمدافع المركبة على "سور المرسى"، وعلى "برج المرسى" وعلى "ساحل البحر" من [ناحية "عين الرباط"، والنصراني] دخل تحت هذا كله، حتى لصق بـ: "سور المرسى"، فكل مدفع خرج تمرَّ كورته فوق سفن النصارى بكثير، ولا نفع لتلك المدافع كلها إلا لمن كان خارج المرسى، وأمَّا من كان في وسط المرسى فلا يلحقه من مدافع الجزائر ضرر لكونه تحت الرمية، وبذلك خَدَعَ أهلها وكادهم»¹²⁶.

¹²⁴ - الرحلة، ص 10.

¹²⁵ - الرحلة، ص.ص (10-11).

¹²⁶ - الرحلة، ص 11.

❖ ذكره لمعرفة داي الجزائر بالحملة قبل رسوها قبالة سواحل المدينة: وهو ما يتوافق مع الوثائق والمصادر التاريخية، ففي إحدى الرسائل التي بعثها الداي عمر إلى الخليفة في اسطنبول مؤرخة يوم: 5 رجب 1231هـ الموافق لـ 1 جوان 1816م يقول فيها: «لقد علم أوجاقنا من مالطة أن الدول المسيحية قد تحالفت على إنشاء أسطول مشترك بينها، وقوة مدفعية لمحاربتنا، ومن الواضح أنهم يضمرون لنا النوايا السيئة تجاهنا»¹²⁷، كما تحدّث صاحب الرحلة عن معلومة تاريخية مهمة تتعلق بالعلاقات السياسية التي كانت قائمة بين الأيالة الجزائرية والمملكة العلوية والتي تميزت -بحسب روايته- بالتضامن والتفاهم، ذلك أن المولى سليمان سلطان المغرب راسل الداي عمر يخبره بنوايا الأوروبيين، كما أخبره بأمرهم يهود الجزائر من "مدينة القرنة"، إن هذه الإشارات من صاحب الرحلة تحمل في طياتها نقداً قوياً للطريقة والخطة التي انتهجها الداي في مواجهة الحملة فرغم علمه المسبق بالحملة ونواياها إلا أنه أساء التصرف، وبالتالي فصاحب الرحلة يحمل الداي تبعات ما جرى، وإن كان قد ختم كلامه بأن هذا ما قدّره الله وأراد، وفي ذلك يقول: «مع أن "صاحب الجزائر" بلغه خبرهم قبل مجيئهم، كاتبه بذلك مولانا سليمان -نصره الله- على ما سمعنا، وكاتبه يهود الجزائر من "مدينة القرنة" بحقيقة خبرهم، وأنهم غادرون فما بالي بذلك (كذا) ليقع ما قدّره الله وأراد»¹²⁸.

❖ وصفه للداي عمر باشا وما جرى لحشمه وعياله: إن الداي عمر لم يتلق أي نوع من التعليم، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة، ومع ذلك فقد زودته الطبيعة بالصفات التي يجب توفرها في الحاكم، كان في حوالي الأربعين من عمره عند الحملة كان قوي البنية، موفور الحيوية، اتسمت أعماله بالعدل والحلم، وفي ذلك يقول: «وقد رمى "دار السلطان"¹²⁹ باشا عمر" بكورة، وزنها أصحاب الباشا المذكور فوجدوا فيها مائة رطل وإحدى وخمسين رطلاً بالعطار، وحضرت لوزنها، وخرجت من دار الباشا قدر دويرة (كذا)، ومات تحتها من حشم الباشا وعياله أحد عشر نفساً على ما قيل، وهذا الباشا فيه من الشجاعة والتجدة -أكثر ما يصف الواصف- ولو أن أحداً يموت قبل أجله المقدر له، ما عاش ذلك اليوم ولا بقي منه عظم ولا شيء من ثوبه، استقبل ب صدره ووجهه الكُور الذي يتزل مثل البرد، وهو ينادي ويصيح: «يا عباد الله، اللجنة مفتوحة لكم أبوابها، الجهاد يا أمة محمد، الجهاد يا أمة محمد» وهو في ذلك مثل الجمل الفحل، وزبده على فيه حتى غطى شواربه، فجزاه الله خيراً على موقفه ذلك»¹³⁰.

❖ معاودته الحديث عن الوضعية الخاطئة للمدافع المركبة في ميناء الجزائر والدور الذي قام به مدافع حسن باشا: وفي نص الرحلة أيضاً استدراك آخر من صاحبها لموضوع الوضعية الخاطئة للمدافع المركبة في ميناء الجزائر، لكن في هذه المرة ذكر ردة فعل بعض الضباط واجتهادهم أمام هذه الوضعية الطارئة التي أوقعهم فيها اللورد اكسموث، والدور الذي أدّاه مدافع برج حسن باشا بن خير الدين باشا الذي شرع في بنائه عام 1545م

¹²⁷ - انظر: عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق، ص-ص(144-145).

¹²⁸ - الرحلة، ص11.

¹²⁹ - دار السلطان وتسمى: بالجنينة وهي مقر الدايات منذ أن خنق عروج سليم التومي إلى عهد الداي علي خوجة سنة 1816م الذي نقل مقر الحكومة إلى القصبة العليا.

¹³⁰ - الرحلة، ص12.

على بعد 1700 متر من القصبة العليا¹³¹، وفي ذلك يقول: «جميع مدافع الجزائر ما نفع شيء ذلك اليوم، سوى المدافع الذين [كذا] في "برج مولانا الحسن"، من جهة "عين الرباط"، ومنه ضُربَ المركب الذي فيه ثلاثمائة نصراني، ولكن ما تمكن منه الضرب لمن في وسط المرسى، حتى هَدَمَ المسلمون كثيراً من فندق يسمى فندق "بني امزاب"، لحيلولته (كذا) بين "برج مولاي الحسن" و"المرسى"، فهَدَمُوا بعض طبقتة العليا، حتى تمكن للرامي من البرج المذكور رمي من في المرسى، وأما غيره من المدافع فلم تغن عنهم شيئاً»¹³².

❖ ذكره لتصرفات بعض جند العدو الذين نزلوا إلى البر الجزائري خلال فترة الهدنة: وفي ذلك يقول: «وفي مدة إقامته -لعنه الله- خارج المرسى ينتظر أساراه، كان أصحابه -دمرهم الله- يدخلون الجزائر [بكرة] وعشية يسرقون العنب والتين، وجميع الفواكه والخضر، والدجاج والغنم]، ويفتحون بصنيعهم تصريخاً، ويقولون: هذا الموضع هَدَمَ أهل سفينة كذا، وهذا أهل سفينة كذا، ولا يقدر تركي ولا عربي يُكَلِّمُهُمْ حتى أقاموا هناك ثمانية عشر يوماً، وجاءه أساراه كلهم»¹³³.

❖ ذكره للرسالة الثانية من اللورد اكسموث إلى الداوي عمر واعترافه بشجاعة أهل الجزائر: وفي ذلك يقول: «وبعث للـ: "باشا عمر" كتاباً آخر، يقول فيه: «اليوم علمتُ وإِنَّكَ علمتَ وَحَقَّقْتَ بأني صادق فيما أخبرتك به قبل المقاتلة، أنه لم يبق عربي ولا عجمي يُضادُّني وما قاتلني أحد إلا غلبته، وكل من حَدَّثته نفسه بقوة وشجاعة قهرته وغلبته، ولم يبق في برٍّ ولا بحر، من فاق الرِّقَّاق، من عنده قرن إلا كسرت له بقوتي ومالي، ولا تقل: إني غدرتك، فإن ملاقاتة الأقران ومحاربتهم يكون بالقوة، ويكون بالشجاعة، ويكون بالمكنة والحيلة، كما قيل: الحرب خداع، وكما ينبغي لأمثالك أن يكون فيهم فضل جماعة، فكذلك ينبغي لهم أن يكونوا أهل مكرٍ وخديعة، بل هذا أولى بهم وأكد في حقهم، ولو كنت متصفاً بذلك ما توصلت أنا لما فعلته بك وبمدينتك، ومع هذا كلَّه فإنِّي ما قاتلت أحداً قط وطاول معي مثلك، لا نصراني ولا مسلم، حتى إن سيدك وسلطانك "صاحب اسطنبول" قاتلته عام أول، فما مضت ثلاث ساعات حتى أذعن وطاع وأقرَّ بالغلب، وأنت قاتلتك إحدى عشر ساعة غير سدس فكان آخر قتالك مثل أوله، ولكن الذي أوصيك به لا تحقر الرجال، ولا يكون القتال والحرب أحبُّ إليك وأسرع من الصلح والعافية، واجعل أيامك لك ولرعيك أيام عافية ومسألة، يقضون فيها مصالحهم ويبيعون ويشتررون، ويزيدوا في أرزاقهم، وبهذا يحبونك ويمدحونك، يسافرون لأي أرض أرادوا، من غير خوفٍ عليهم، ولا حذر، وأما ما مكثت عليه، فإنه لا يرتضيه عاقل، والمقصود من هذه الدنيا هو السير في الأرض برّاً وبحراً للأسباب والتجارات (كذا)، في عافية وأمان، وأنت أعرفُ لنفسك والسلام، هذا تحقيق ما وقع بين صاحب الجزائر "الباشا عمر" وبين "بدرٍ لنقليزي" -طاغية "أفلتكتظر" دمره الله-، وقطع دابره بعضه مشاهدة، وبعضه بطريق الخبر من الثقات (كذا) والسلام»¹³⁴.

¹³¹ - انظر: حليمي عبد القادر مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، المطبعة العربية، الجزائر، 1972م، ص 245.

¹³² - الرحلة، ص 12.

¹³³ - نفسه،

¹³⁴ - الرحلة، ص.ص (12-13).

• خاتمة المؤلف وذكر النساخ:

❖ خاتمة المؤلف: وفيها يقول: «وكتبه "عبد الرحمن بن إدريس التنيلاي" -تولاه الله-»¹³⁵.

❖ النسخ الأول للرحلة: ويقول: «وبه كتب ناقله من خط "سيدي عبد الرحمن" المذكور، بأواسط ذي القعدة سنة أربعة وأربعين ومائتين وألف (1244هـ)، عبدُ ربِّه تعالى "محمد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد التنيلاي" -أمَّنه الله له ووالديه [في الدارين] آمين-، [ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم]»¹³⁶.

❖ النسخ الثاني للرحلة: ويقول: «[ونقلها بعده الطيب بن عبد الله بن سالم بن عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي لطف الله به يوم 1996/09/28م-1417هـ]»¹³⁷.

3. قراءة نقدية للمخطوط: الأوضاع السياسية والعسكرية للجزائر العثمانية من خلال محتوى المخطوط:

في كثير من الأحيان يتهم المؤرخون الغربيون الكتَّاب أو المؤرخين المحليين بعدم الموضوعية وضعف الدقة والتثبت مع المبالغة في كثير من الأحيان ولكن الحقيقة غير ذلك فمؤلف - الرحلة - قد يفاجئ القارئ بمعلومات دقيقة جداً لا تختلف عما أورده المؤرخون الغربيون لهذه الحملة بل هي متطابقة في كثير من الأحيان والمواضع بل وتزيد عنها في الإضافة الخبرية وحتى في تفسير بعض الحوادث والمواقف، فرحلته تعتبر وثيقة محلية هامة أرّخت لحملة اللورد إكسموث على العاصمة الجزائرية سنة 1816م، والتي انتشر خبرها حتى خارج القطر الجزائري، ويصف كذلك في رحلته من توات إلى الجزائر العاصمة؛ المدن التي مرَّ بها، ويذكر من لقيه هناك، مع فوائد جلية أخرى سيجدها القارئ لهذه الرحلة، وتزداد هذه المخطوطة قيمةً تاريخيةً إذا اكتشفنا أنها تقدم بعض المعلومات الجديدة والحصرية إذا ما قارناها مع المصادر المحلية الأخرى كمذكرات الشريف الزهار¹³⁸، ورسالة عمر داي إلى الخليفة بإسطنبول¹³⁹، ليستفيد القارئ من وجهة نظر أخرى للأحداث ربما قد تكون في أغلبها موضوعية وفي أحيان أخرى تجانب الموضوعية وتغرق في الذاتية، رغم أن صاحب الرحلة تعهد في موضعين اثنين بالمخطوط أنه لا يتحدث إلا انطلاقاً من المشاهدة العيانية أو من مصدر موثوق، ومعظم الذين اهتموا للحادثة من خلال رحلة عبد الرحمان بن إدريس التنيلاي يحكمون على هذا المخطوط أنه المصدر العربي الوحيد الأكثر وثوقاً في تسجيل وتدوين أحداث تلك الحملة، وهو ما يكسبه الأهمية البالغة في تاريخ الجزائر الحديث، لما يحمله من حقائق تفصيلية غاية في الدقة والإحكام لكونها سُجلت بعد مشاهدة عينية وكتب المؤلف أحداثها شخصياً، واستمع فيها بالمقابل إلى شهادة ثقات مدينة الجزائر وقتها فجاء المخطوط في كل هذا وذاك حاملاً لواحدة من أهم وأندر الشهادات التاريخية العينية في تاريخ الجزائر الحديث، ومن هنا فإن هذه الوثيقة المتميزة جديرة بالقراءة والتحليل والاستنتاج، ويمكن تحديد معالم قيمتها العلمية كالتالي:

¹³⁵ - الرحلة، الصفحة الأخيرة.

¹³⁶ - الرحلة، الصفحة الأخيرة.

¹³⁷ - نفسه.

¹³⁸ - الزهار، المصدر السابق، ص 117 وما بعدها.

¹³⁹ - التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص 146.

✓ **الانفراد بالموضوع:** يعتبر المخطوط، الوثيقة الجزائرية الوحيدة والمعاصرة والعيانية التي دوّنت لأحداث سياسية وعرقية وثقافية ودينية لقبائل الصحراء الجزائرية.

✓ **ثراء الأفكار**(رغم الاقتصاد في الوصف والتعبير)، وتنوع المعلومات(رغم قصر مدة الرحلة): تشتمل الرحلة على معلومات مختلفة، وأفكار متعددة، كتقديمها لمعلومات هامة عن سيرة صاحب الرحلة الذي لا نعرف عنه الكثير، بالإضافة إلى أنها تمدنا بمعلومات عن واقع المدن والقبائل والأعراش في الصحراء الجزائرية والمهضاب العليا وحتى بمدينة الجزائر وأنماط معيشتهم، مع عرض لنماذج حقيقية لحالة التدافع والصدام التي كانت قائمة آنذاك داخل أرومة المجتمع الجزائري (صدام مذهبي بين الشعابنة المالكية والميزابيين الإباضية) (صدام اقتصادي بين القبائل المستقرة والسائبة)(صدام سياسي بين منظومة الحكم التركي والعديد من القبائل الجزائرية وتجلى ذلك عقب الانكسار العسكري المريع بعد توقيع معاهدة الذل مع الانجليز)(صدام اجتماعي بين أهل البدو وأهل الحضر)..

✓ **التزام الاختصار المفيد:** لوحظ أن عبد الرحمان بن إدريس قد اختصر في حديثه، وركّز على ذكر بعض التفاصيل الضرورية التي يتطلبها الموضوع، لذلك نراه يتفادى نقل أخبار من تحدّث إليهم أثناء الرحلة، وقد بين ذلك في خاتمة كتابه إذا قال: «هذا تحقيق ما وقع بين صاحب الجزائر "الباشا عمر" وبين "بدر لنفليزي" -طاغية "اقلنكطر" دمره الله-،... بعضه بطريق الخبر من الثقات(كذا) والسلام»¹⁴⁰. وكان ثمرة ذلك أنه حافظ على جوهر الموضوع، وإذا تعمد أحيانا الإخلال بتناسق الأفكار وتسلسلها، إلا أنه لم يبالغ في ذلك، فتراه يسجل عودته لموضوعه بأسلوب مفاجئ، مستعملاً ألفاظاً دالة على ذلك.

✓ **صدق الحديث:** ظهر لنا أن صاحب الرحلة قد تحرى صدق الحديث وهو يتتبع مراحل رحلته، وإذا كان شاهد عيان، فهذا لم يمنعه من أن يستقي بعض الأخبار من أشخاص يثق بهم صادفهم أثناء رحلته، واعتقد أن معارفه في مدينة الجزائر قد ساعدته في تقييد أوراق هذه الرحلة. ولما يشكك في الخبر، ولعل أبرزهم الفقيه الحسن بن مصطفى الجزائري بن قاضي مالكية الجزائر. وإقرار صدق روايته، كان عبد الرحمان بن إدريس حريصاً على التحقق من المعلومات التي يسجلها، وإذا غابت عنه معطيات التحقيق، يذكر ذلك، تاركاً الأمر في طي الجھول. ورحلة عبد الرحمان بن إدريس إلى مدينة الجزائر تزداد أهميتها التاريخية على الرحلات التواتية الأخرى كونها تعرضت إلى الحملة الانجليزية على الجزائر بالذكر والوصف والتحليل، فشخصت أسبابها قبل وبعد انطلاق المواجهة، بالإضافة إلى الظروف المحيطة بالحملة (الأوضاع السياسية والعسكرية)¹⁴¹، وبذلك يكون عبد الرحمان بن إدريس هو مؤرخ هذه الحملة، ومن الخصائص الجلية في هذا المخطوط هو أنه بيّن لنا وجود ارتباط قوي بين السلطة العثمانية وأقاليم الصحراء الجزائرية، وذلك من خلال إبرازه لمعالم الطريق الممتدة من توات إلى الجزائر والتي تمر بغرداية ومثليي وبابليك التيطري، كما تتضح العلاقة كذلك من خلال التعاطف الذي أبداه المؤلف مع السلطة

¹⁴⁰ - الرحلة، ص.ص(12-13).

¹⁴¹ - ملاح (عبد الجليل)، الحملة الانجليزية على مدينة الجزائر من خلال رحلة الشيخ عبد الرحمان بن إدريس التنبلاي، الملتقى الوطني الرابع، إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية أبان العصر الحديث 15000م- 2000م جامعة أدرار 19 / 20 ابريل 2010م، ص.ص(154-155).

العثمانية بعد نكسة الهجوم البحري الأوروبي مما يُوحى بوجود رابطة معنوية أو مادية بين السلطة المركزية في دار السلطان وسكان إقليم توات¹⁴²،

✓ ولعل أهم ما يتحفظ له القارئ لهذه الرحلة هو تلك الملاحظات الانطباعية والمواقف الحادة التي سجلها على سكان وادي ميزاب خصوصاً منهم أتباع المذهب الإباضي، فبالإضافة إلى ما سجله من اختلافات مذهبية بينهم وبين سكان باقي المناطق المجاورة، نجد أنه يركز النقد في اتجاه واحد وإن كان قد حاول الموازنة بين الطرفين في موضع واحد من المخطوط حين قال: «وبين أهلها (الشعانية) وبين (أهل امزاب) من الحرب والقتال ما لا يوصف... إلى آخر الفقرة...»¹⁴³، ومثلها أيضاً قوله: «...وما عداهم "عزّابة" ولا يأفون من هذا الاسم، ... والأمان والعافية التي توجد عندهم لا يوجد مثل ذلك عند غيرهم، لا (...) في طاعة مولانا سليمان نصره الله، ولا في طاعة سلطان الجزائر ووهران وتلمسان، ... إلى آخر الفقرة...»¹⁴⁴. إن هذه المواقف الانطباعية الحادة التي تبناها الشيخ عبد الرحمان بن إدريس لم تسجل في هذا الموضع فقط بل نجدها تتكرر كثيراً مما يعطي لك إشارات وملامح قوية على بناءه الشخصي والنفسي، فمثلاً وهو يشكر في قبائل عرب النوايل انتقد بشكل مجاني وعلى الجملة قبائل أخرى لها تاريخها ولها رجالها كقوله: «(وَلَقَرَارَ) (كذا) ونعم العرب هم، -كثّر الله في عرب المسلمين من أمثالهم-، وهم أهل بيت الرحمة (كذا)، ... وليسو مثل "عرب أحميان" أو "ذو منيع" أو غيرهم من العرب في قلة الدين والنظافة؛ بل هم الغاية في ذلك أهل وضوء وصلاة وزكاة ورحمة»¹⁴⁵، ويمكن تسجيل بعض الأخطاء والهئات من لدن صاحب الرحلة رغم أن الرحلة جاءت في نصها قصيرة، ورغم أن صاحبها كان يتحرى الدقة في الوصف والعدل في إصدار الأحكام مع العودة إلى الشهود الثقات إلا أن هذا لم يمنع صاحبها من الوقوع في بعض الزلات؛ ومنها على سبيل المثال لا الحصر، خطؤه في تسمية باي التيطري زمن مروره بالبلييك، فهو يقول: «وفي الثالث¹⁴⁶ خرجت [مع] رجال من "بني امزاب" قاصدين "مدينة تطر" وهي أوّل عمالة صاحب الجزائر من هاذ (كذا) الطريق، وتسمى أيضاً "المدي" (كذا) وفيها "الباي إبراهيم»»¹⁴⁷، إن إبراهيم باي الذي ذكره صاحب الرحلة وقال أنه كان حاكماً على بابلك التيطري فترة مروره بها امتدّ حكمه عليها بين سنتي (1799-1801)م ليخلفه فيما بعد حسن باي، والأصح أن الرحلة عاصرت فترة حكم الحاج علي مصطفى بومرزاق الذي امتد حكمه بين سنتي (1809-1830)م وهو من زامن الهجمات الفرنسية التي ردّها إلى الساحل ليستسلم في الأخير ويُنفى إلى الإسكندرية أين توفي. دخل بعده بابلك التيطري كما بعض المناطق الأخرى تحت الحكم الاستعماري الفرنسي حيث نصّب المارشال كلوزيل عمر باي حاكماً على الإقليم بعد استيلاء القوات الفرنسية على المدينة. من أخطائه التي وقع فيها رغم تحريه للمصادر الثقة، هو إيجائه للقارئ أنه كان حاضراً لحظة نزول عمارة الإنجليز

142 - الرحلة، ص 03.

143 - الرحلة، ص 01.

144 - الرحلة، ص 03.

145 - الرحلة، ص 03.

146 - أي يوم الخميس 28 رمضان 1231هـ / 23 أوت 1815م

147 - الرحلة، ص 04.

والهولنديين على سواحل مدينة الجزائر، غير أن التدقيق والمراجعة لكترونولوجية الرحلة تثبت أن صاحبنا لم يكن موجوداً حينها في مدينة الجزائر، وروايته لخبر التزول بذلك الوصف المباشر لا يعني بالضرورة كأنه كان يشاهدها عياناً. من أخطائه أيضاً عدم دقته في ذكر التسميات والألقاب الصحيحة سواء للأماكن أو للأشخاص أو القبائل والأعراش... ولعل زلاته في تسمية الأماكن والمدن والقصور... تعتبر مبررة فقد يكون الخطأ شكلياً كأن يكون الخطأ في طريقة كتابتها، لكن الغير مبرر هو الخطأ الكلي كأن يخطئ في تسمية منطقة بأكملها، أو أن يجانب الصواب في تسمية اسم علم ورد في سياق الوصف، من ذلك مثلاً خطأه في ذكر اسم قائد الحملة الإنجليزي اللورد إكسموث، وفي ذلك يقول: «فلما كان يوم الأحد من شهر تاريخه عند العصر، نزلت سفن عدو الله "بدر" لنكليز" قرب "الجزائر"»¹⁴⁸ حيث سَمَّاه بِبدر لنكليز، ومن المعلوم أن أشهر من حمل هذا الاسم (بيدرو) من القادة البحريين الأوروبيين الذين سيروا حملات عسكرية على سواحل مدينة الجزائر شخصان هما: الأميرال دون بيدرو كستيخو (Don Pedro Gastejo): الذي قاد الغارة المشهورة باسم أورلي (O'Reilly) (نسبة إلى أورلي الضابط الإيرلندي الأصل الذي كان في خدمة الملك الإسباني شارل الثالث) في أول جويلية سنة 1775م، بجيش من الأسبان، والإرلنديين، والسويسريين، والبلجيكيين والوالون (wallons). والأميرال بترو نفارو (Pietro Navarro) الذي قاد غارة مشتركة مع الكردينال فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس (F. Jimenez de Cisneros) على المرسى الكبير يوم 23 أكتوبر 1505م. والراجح هو هذا الأميرال (بترو نفارو) الذي يعتبر من الأوائل الذين شنوا الغارات، ووسعوا من الهجمات على السواحل الجزائرية بعد سنة 1508م عند توليته قيادة الأساطيل الإسبانية. ولعله بقي راسخاً في الذاكرة الشعبية من أن كل من يهاجم الجزائر من الأوروبيين يلقبونه بـ: "بدر"، وقد كان على صاحب الرحلة التثبت في النقل والرواية. والمقصود ببدر في نص المخطوط هو: اللورد "إدوارد بيلاو إكسموث (Lord-Edward Pellew Exmouth) قائد الحملة الإنجليزية-الهولندية، واسمه الذي اشتهر به بـ: إكسموث (1757م - 1833م). وكان يسانده في حملته الأميرال الهولندي "فان كايبلان" (Van-Kappellen)¹⁴⁹، ومن هُنا صاحب الرحلة استناده في تبرير عدم السرعة في الرد على الرسالة الأولى لقائد الحملة الإنجليزية مما أعطى لهذا الأخير الحجة في ضرب مرسى المدينة على سبب غير مؤسس وغير مقنع بالنسبة لدولة لها مؤسساتها وهياكلها، وفي ذلك يقول: «فلما بلغ الكتاب صاحب الجزائر، وجد أكابر البلد ورؤساء الجند مفترقين في الجنات، لأن هذه الواقعة وقعت في فصل الخريف، وعادة البلد: أن كل

¹⁴⁸ - الرحلة، ص 04.

¹⁴⁹ - للتوسع يراجع: - عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، Belhamissi Moulay, Marine et marines d'Alger à l'époque Ottoman (1518-1830) جون وولف، المصدر السابق - وليام شالر، المصدر السابق، ص 150. حنفي هلايلي، العلاقات الجزائرية الأوروبية و نهاية الإيالة 1815-1830، دار الهدى، ط1، الجزائر، 1428هـ/2007م، ص.ص (12-14)، و (21-22)، مولود قاسم نيت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج1، دار البعث للطباعة و النشر، ط1، قسنطينة، الجزائر، 1405هـ/1985م، ص 210. عبد الكريم محمود غرايبية، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص 175. - ألبير دوفال، الرئيس حميدو، تر. محمد العربي الزبيري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص 15.

من عنده جنان يكون سكناه فيه ذلك الوقت، فتعطلّ الجواب عن النصراي»¹⁵⁰، وبالعودة إلى المصادر الأوروبية التي أرّخت للحملة نجدتها تتفق على رواية مغايرة لا أثر فيها لقصة صاحب الرحلة، ومعها توافقت المصادر العربية، فهذا جون وولف يقول: «وبينما كان الجزائريون يدرسون الإنذار، تحرّك الأسطول الإنجليزي-الهولندي- بسرعة واتخذ وضعا يسمح له بأن يطلق النار ويصيب الهدف عبر الرصيف البحري والميناء»¹⁵¹، من أخطاء صاحب الرحلة أيضاً هو ذكره لشرط وهمي في اتفاق وقف الحرب بين الجانبين لم يرد أصلاً في المصادر الرسمية ولا حتى في وثيقة المعاهدة الموقعة، حين يقول: «وثالثهما: أن يطلق "صاحب الجزائر" لهم "وهران" و"عنابة" يكيلون منها الزرع، ولا يدخل الأتراك بين النصاري وأرباب الزرع -أهل الفلاحة- في ذلك»¹⁵²، وقد كان عليه أن يدقق في معلوماته.

الخاتمة :

ولعل محاولتنا (تحقيق مخطوط الرحلة والعناية به)؛ البسيطة في مضمونها والمتواضعة في شكلها تسعى هي الأخرى جاهدة في إبراز مجموعة من الملامح والإشارات التي تدلنا على مكانة المؤلف وعصره ومنطقته، كما أنها تطلّعننا على حوادث تاريخية مهمة في الجانب الإنساني، وقد أشرنا إلى البعض منها في أبعاد المخطوط التاريخية وفي نقد محتوى المخطوط، ويمكن أن نستخلص مجموعة من النتائج المتوصل إليها من خلال دراسة وتحقيق الرحلة المدروسة وهي كثيرة ومتنوعة نبرز الأهم فيها. فمن خلال ما تقدم من عرض نستنتج أن الوصف الذي قدمه لنا الشيخ عبد الرحمان بن إدريس التنيلاي حول الطريق البري الشمالي من تينلان إلى ثغر الجزائر، يُمكننا من أخذ فكرة حول الظروف التي كان يؤدي فيها المرحّلون التواتيون خصوصاً- رحلتهم، غير أن هذه الرحلة تعطينا تفاصيل أخرى صادفها الرحالة حول أحوال المناطق التي مرّ بها، ولهذا فإن الفائدة موجودة، كما أنها -أي الرحلة المدروسة- تكتسي بعداً اجتماعياً يتجاوز الحدود المحلية إلى بعض الأقطار العربية يمكن الاستفادة منه؛ وذلك أنها أشارت إلى العديد من العادات والتقاليد والأعراف السائدة حينها في بعض القرى والمدن والمداشر سواء المغمورة أو المعلومة في المجتمعات الصحراوية والتلية في الجزائر، وبخصوص موضوع الحملة الإنجليزية الهولندية على الجزائر فإن المخطوط أفادنا بجملة قضايا تاريخية تحتاج إلى نقاش ضمني عميق منها:

- إن انضواء الجزائر تحت لواء الحكم العثماني طوعية كان سبباً في الظهور الفعلي المؤثر لمدينة الجزائر خلال هذه الفترة فقد اهتمّ بها الأتراك وطوروا عمرانها كما قاموا بتحصينها وتبين ذلك من خلال منشآتها الدفاعية المذكورة. وهو ما ساهم في التصدي لمعظم الحملات وقهر قواتها في البحر الأبيض المتوسط
- إن الحملات الأوروبية أحدثت اضطرابات داخلية بالعمق الجزائري في كل المجالات خاصة المجالين الاقتصادي والسياسي. مما أدى إلى إهناك الدولة والشعب اقتصادياً وعسكرياً مما جعل الجزائر في آخر المطاف فريسة سهلة أمام المعتدين (سنة 1830م)، إن الدول الأوروبية وجدت في حملاتها على مدينة الجزائر فرصة

¹⁵⁰ - الرحلة، ص 06.

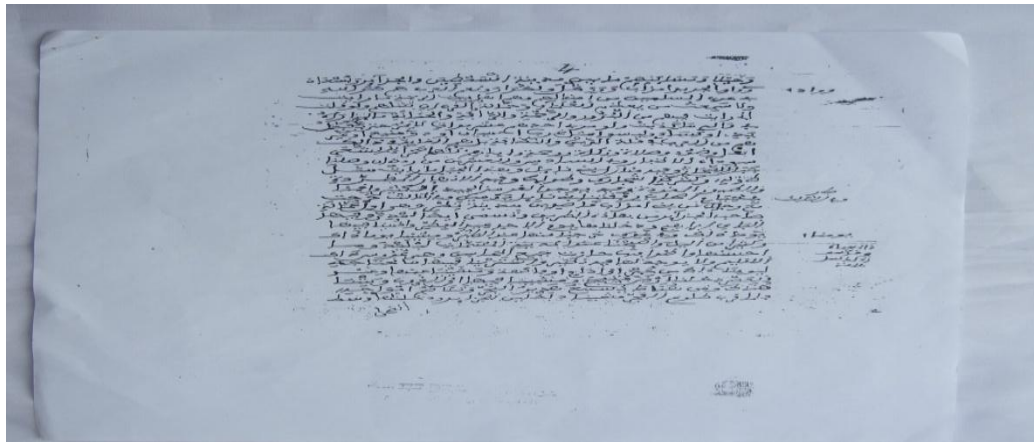
¹⁵¹ - للتوسع يراجع: -جون وولف، المصدر السابق، ص 445. - وليم سبنسر، المصدر السابق، ص 160.

¹⁵² - الرحلة، ص 06.

لتكتلها كما كانت تنوي التخلص من مشاكلها وخاصة بعد مؤتمر فيينا 1815م ومؤتمر إكس لاشايل 1818م.

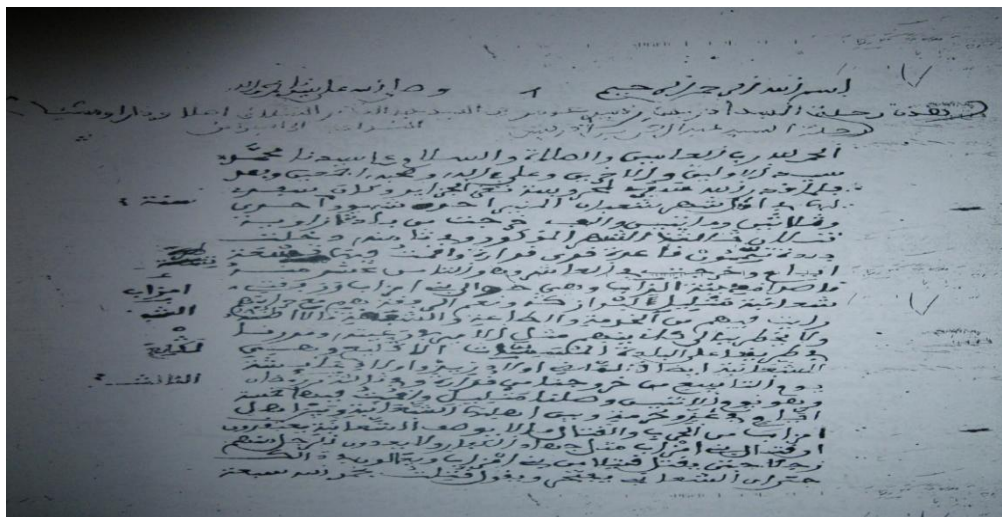
صورة من الصفحة الرابعة من مخطوط الرحلة (النسخة 1)

الملحق رقم: 01



صورة من الصفحة الأولى من مخطوط الرحلة (النسخة 2)

الملحق رقم: 02



صورة من الصفحة الأولى من مخطوط الرحلة (النسخة 3)

الملحق رقم: 03

